قراءة فى شعر الاغتراب

ميمية المتنبي

اغتراب ذات ووقار أسى وحلم ضائع

دكتور

زكريا عبد المجيد النوتى

المدرس فى جامعتى الأزهر وأم القرى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

مطبعة الحسين الإسلامية

٢٥ ح المدرسة خلف الجامع الأزهر

تليفون : ٥١٠٦٧٢٤ - القاهرة

أَتَرَكْتَ بَـعْـدك شـاعــراً ؟ والله لاَ

لم يَبْقَ بَعْـدَكَ فى الزَّمَـانِ مُـقَـصِّـدُ

ثابت بن هارون فى رثائه للمتنبى

مـــــا رَأَى النـاسُ ثانَـى المتـنبـى

أىُّ ثـانٍ يُرى لِـبِكْرِ الـزمـــــان

أبو القاسم مظفر بن على الطبسى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

أحمدك ربى وأشكرك ، وأصلى وأسلم على صفوة أنبيائك ورسلك.

وبعـــد

فهـذه قـراءة لـدرَّة مـن دُرَر شـاعـر العـربيـة الأكـبـر - بـلا مـنـازع - « أبى الطيب المتنبى » . قـدر لى أن أقـوم بتدريـس الأدب العبـاسى فى عصره الثـانـى بجامعـة أم القـرى لعاميـــن متتـاليـــن، فـاستـوقفتنـــى قـصيـــدة « المتنبى » الميـميـة - فى وصف الحمى - فـأخذت أقـرأها مع الطلاب مرة بعد مرة ، وكنت أسجل انطباعاتى حولها. ثم عدت لقراءتها وحدى متذكـــراً ما كان يحثنا عليه أستاذنا الدكتور « محمد نايل » - أعزَّه الله - ونحن ندرس علـى يديه مـادة « النصـوص الأدبيـــة » فى مـرحلة الدراسات العليا .

كان يريد قصر دراســة الباحث على قصيدة بعينهـا ، ومن بين القصائد التى أشار إليها :

- قصيدة « على قدر أهل العزم . . . » لأبى الطيب المتنبى .
- وقصيـدة « مكما يجل عن الملام . . » الميميـة فى وصف الحمى للمتنبى أيضا . وغيرهما .

وكان لهذه الأخـيرة نصيبهـا فى هذه الدراسة. وقد يكون سبـقنى إليها غيرى ، بيـد أن قراءتى لها كانت من زاوية معينة أشـرت إليها فى عنوان

الدراسة « ميمية المتنبى. اغتراب مرير، وفارس أسير، وحلم ضائع » قراءة في شعر الاغتراب .

وقد أفدت مما كتب حول « المتنبى » حين كانت الدراسة تتطلب ذلك.

وإنى لأرجو أن أكـون موفـقا فى قراءتى . ومـا توفيقـى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور

زكريا عبد المجيد النوتي

الطائف فى / / ١٩٩٦ م

تمهيد

الغربة والاغتراب :

هما كلمتان بمعنًى ، يقول ابن منظور : « والغربة والغرب : النزوح عن الوطن ، والاغتراب ، قال المتلمس :

ألا أبلغا أفناء سعد بن مالك   رسالة من قد صار فى الغرب جانبه

والاغتراب ، والتغرب كذلك. تقول منه : تغرب واغتراب ، وقد غربه الدهر.

والتغريب : النفى عن البلد، وغرب : بعد . واغرب عنى : أى تباعد. يقال : أغربته وغربته : إذا نحيّته وأبعدته، والتغرب : البعد.

وفى الحديث : أن النبى - ﷺ - أمر بتغريب الزانى سنة إذا لم يحصن، أى نفيه عن بلده.

ويقال : أغرب الرجل : جاء بشىء غريب . والْغَرْبُ : خلاف الشرق. والغروب : غيوب الشمس[1].

وبتأمل المعانى التى أوردتها المعاجم اللغوية لكلمة « الغربة » ومشتقاتها نلاحظ : أن إيحاءاتها لدى الإنسان العربى فى الماضى كانت إيحاءات تبعث فى قلبه الألم والحزن، والنفور والتشاؤم.

ومن هنا كانت كراهيتهم للغراب، لأنه مشتق من الغربة، وفى أمثالهم : « أشأم من غراب البين »[2] و « أفسق من

---

(١) لسان العرب : غرب .

(٢) جمهرة الأمثال / العسكرى ١ / ٥٥٩ برقم (١٠٣٦) بتحقيق محمد أبى الفضل=

غراب »[1].

وأغربة العـرب : عنترة ، وخفاف ، والسليك ، ومن على شـاكلتهم من ذوى اللون الأسود[2].

وغراب البين : هو غراب أسود ينوح نوح الحزين المصاب ، وينعق بين الخلان والأحباب ، إذا رأى شـملاً مجتمعاً أنذر بشـتاته، وإن شاهد ربعاً عامراً بشَّر بخرابه ودروس عـرصاته، يعرف النازل والساكن بخراب الدور والمسـاكن، ويحذر الآكل غـصة المآكل ، ويبـشر الراحل بقـرب المراحل ، ينعق بصوت فيه تحزين ، كما يصيح المعلن بالتأذين[3].

أهمية شعر الاغتراب

وتتشمل أهمية شعر الاغتراب فى أمور من أهمها[4]:

* أنه يمثل روعـة الصدق فى حياة الشـاعر وفنه. . فحـين تتخلى عنه الحياة، وحـين تروعه المأساة ، وتعـتصر وجدانه الغـربة والعزلة، ويطحنه الظلم والإرهاب فالشـعر حينئذ صديقـه الوحيد فى مغـتربه ، هو وجوده الحقيقى ، الذى لم يتخل عنه بين الرياح الهـوج، هو قلبه وضميره، وأمه

= إبراهيم ، عبد المجيـد قطامش - المؤسسة العربية الحديثة . والمستـقصى فى الأمثال للزمخشرى ١ / ١٨٣ .

(١) انظر : تيارات مـعاصره فى الشعر الجـاهلى د / سعد دعبـيـس ص١٥٨ ومـا بعدهـا ولم أعتر على المثل فى كتب الأمثال المتوافرة لدى .

(٢) تيارات معاصرة ١٥٨ وما بعدها .

(٣) دائرة معـاف القرن العـشرين - محـمد فريد وجـدى ٧ / ٥٢ وما بعـدها ، تيارات معاصرة ١٥٨ .

(٤) راجع لذلك تفصيلا : تيارات معاصرة فى الشعر الجاهلى ص١٥٧ ، ١٥٨ .

وأبوه ، ووطنه وأحباؤه. لا يملك حينئـذ إلا أن يهمس له همسة الملتاع، ويهتف به هتـاف المظلوم ، و يبكى معـه وبه ماضيـه الجميل، وحـاضره المؤلم، وغده الضائع.

ولذا يكون أشـد تأثيرا فى النفـس ؛ لأنه يعبـر عن الحيـاة الوجدانيـة للشاعـر ووجوده المعنوى كله، فـفيه نرى المكان الذى ترفـرف حوله روح الشاعر، والوطن الحقيقى الذى تنتمى إليه مشاعره وأحاسيسه. ثم هو بعيد عن المنفعـه العاجلة والكسب المادى ، بل ربما كان حنين شـاعر منفى إلى وطنه وتمجيـده إياه عاملا من عوامل النقـمة عليه وزيادة تعذيبـه، وكذلك ربما كان تعـبيـره عن تمرده على الأوضاع الفاسـدة فى وطنه ، وإحسـاسه باغترابه إزاءها مدعاة أيضا لزيادة اضطهاده ، ونفور بعض مواطنيه منه .

* هو مرآة صادقـة للعصر الذى يعيـشه الشاعر، ففى مـواقف الشعراء الهاربين من المجتمع ، الساخطين على فساده وتمزقه، ما يلقى الضوء على العلل التى تهدد المجتمع بالتمزق..

وقد بدأ شعـر الاغتراب مع بدايات الشعر، منذ الجاهليـة ، ويتمثل فى شعـر الأطلال . . ذلك أن « الوقوف على الأطلال فى حـياة قـائمة على النفى والاغتراب والتـشرد والضياع والعنف والدمـاء، أقرب ما يكون إلى موقـفنا حين نـتأمل ونحن فى الشـيخـوخة أطلال منزل قـضينا فـيه أيام الصبا . . »[1].

وشعر الاغتراب ليس مـقصورا - فى القديم - على الأطلال، بل نجده فى ثنايا القصيدة .

---

(١) نفسه ص١٧٩ .

« أشهر المغتربين من الشعراء »

ومن أشهر الشعراء الذين عانوا الاغتراب وذكروه فى شعرهم - امرؤ القيس - الملك الضليل[١]- الذى عانى التشرد والضياع والغربة ومات غريبا ، قال مما قال [٢]:

أجارتنا إن المزار قريب ... وإنى مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وقال ذلك حين أوشك على الموت ، وهو بعيد عن وطنه ، غريب عن أهله ، مشاهد لقبر امرأة غريبة مثله .

- ومنهم طرفة بن العبد الذى صرح باغترابه - وهو بين قومه - فى معلقته قائلا[٣]:

ومازال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد

وقال فى قصيدة أخرى[٤]:

ومازال شربى الراح حتى أشرنى

صديقى وحتى ساءنى بعض ذلك

(١) راجع مقال غربة الملك الضليل - عبد الرشيد صادق محمود - فصول - المجلد الرابع - العدد الثانى ص١٣١ وما بعدها. وتيارات معاصرة فى الشعر الجاهلى ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، الحنين إلى الوطن فى الأدب العربى / محمد إبراهيم حور ص٦٦ .

(٢) ديوانه - بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم - دار المعارف ط ثالثة ص٣٥٧ .

(٣) انظر ديوانه بتحقيق الدكتور الجندى ص٤٩ والمعلقات / الزوزنى ص٨٦ - مكتبة المعارف بيروت .

(٤) ديوانه - تحقيق الدكتور الجندى ص١٠٩ ، ١١٠ وراجع كتابنا : تمرد طرفة .

وحتى يقــول الأقربون نصــاحة ... ذر الجهل واصرم حبلها من حبالك

ولا غرو إلا جــارتى وسؤالــها ... ألا هل لنا أهل سـئلت كذلك

تعيــرنى جوب البــلاد ورحلتى ... ألا رب دار لى سوى حر دارك

- **ومنهم عنترة القائل**[١]:

أحــرقتنى نار الجــوى والبعــاد ... بعــد فـقـد الأوطان والأولاد

شاب رأسى فصار أبيض لونا ... بعــد ما كــان حالكاً بالســواد

وغيرهم .

وأبرز المغتـربين طائفـة الصـعـاليـك ، هؤلاء الذين ألفـوا الوحش، واستوحشوا الإنس، **فقال شاعرهم**[٢]:

ولى دونكم أهلون: سيد عملس ... وأرقط زهلول وعـرفـاء جيـأل

هم الأهل، لا مستودع السر ذائع ... لديهم ، ولا الجـــانى بما جـر

وقال شاعرهم[٣]:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصـــوت إنــــــان فكدت أطـيــر

رأى الله أنى للأنـيس لشــــانئ ... وتبـغضـهم لى مـقلة وضـميـر

(١) ديانه ص١٣٤ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٨ . والبيتان مطلع القصيدة .

(٢) الشعر للشنفرى من لاميته. انظرها بشرح عطاء الله المصرى - ط الكويت ص٤٢ .

(٣) البيـتان اختلف فـى نسبتـهما ، فـقيل هما لتـأبط شرا - ديوانه ص١٦٠ ، والشـعر والشعراء ٧٨٧ ، الوحشيـات ٣٤ . وينسبان للأصيمر السعدى من صـعاليك العصر الأموى - انظر : الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى د / حسين عطوان ص٦٢ .

لقد ضاقوا ذرعا بما فى القبيلة من ظلم وجور وتقاليد مرفوضة، فخرجوا ساخطين على تلك الأوضاع .

وقد تكون الغربة واقعة على الشاعر داخل القبيلة، ومرارة هذا النوع من الغرابة أقسى وأشد. . . ومثال ذلك « دريد بن الصمة » الذى نصح قومه، فلم يأبهوا له، ولم يعيروه اهتماما ، بل صموا آذانهم دونه، وصمموا على إنفاذ ما عزموا ، فكانت عاقبتهم وخيمة، وكان قوله :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى	فلم يستبينوا الرشد إلاضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى	غوايتهم وأننى غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت	غويت وإن ترشد غزية أرشد

ومرارة الغربة واضحة فى الأبيات ، إذ ما قيمة الرجل بين قومه ولا رأى له ؟ إذا غاب لم يفتقد ، وإن حضر فكالغائب. . وتأمل قوله :« عصونى » تجدها تفيض ألما وحسرة. . .[1].

لقد « أجبر الشعراء العرب الكبار على التزام وضع اجتماعى مهين، فقام فى نفوسهم الصراع بين هذا الوضع المهين، وبين ثرائهم الروحى. . . كانوا يستبشعون فيما بينهم وبين ذواتهم أن يكون دورهم فى الحياة دور المهرج الوضيع، أو الخادم التبيع، فتعرضوا عندئذ لنوبة حادة من نوبات تأنيب الضمير، واختلفت ردود أفعالهم. . . فلجأ بعضهم إلى القسوة على الحياة والناس بالسخرية الجارحة والهجاء المقذع كصنيع « بشار بن برد ». ولجأ آخرون إلى الملذات العنيفة والموت سكرا كصنيع « أبى نواس » وعصابته. . وحاول بعضهم الدوران مع الحياة وإلغاء شخصيته الفردية كما فعل « البحترى » .

---

(١) راجع : كتابنا « تمرد طرفة » ص٣٩ .

وعانى آخـر شقاء لا حـد له، بين ضيقـه بوضعـه الاجتمـاعى وطلبه للسيادة الفعلية بالاستحواذ على ملك ، أو ولاية، أو نبوة زائفة، كما فعل « المتنبى »[١].

« وظاهرة الشعور بالغربة والانفـصال عن الآخرين - « صدأ العين » - كمـا يعبـر أبو تمام نسغ أسـاسى يجرى فى تجـربة أبى نواس وابن الرومى وأبى تمام والمتنبى وأبى العلاء ومعظم الشعراء فى المرحلة العباسية.

هذا الشعور بالغربة والانفـصال يتضمن السخرية ويستـدعيها، ولولادة السخـرية من هذه الناحية فى العـصر العباسـى دلالة كبيرة. . . السـخرية منفى : فيه يشك الشاعر بالآخر، ويشك بنفســه وبالشعر كما نرى خاصة عند ابن الرومى. . . »[٢].

* * *

---

(١) قراءة ثانية لشعرنا القديم - صـلاح عبد الصبور ص١٨ ، ١٩ دار العودة - بيروت - ط ثالثة .

(٢) مقدمة للشعر العربى / أدونيس ص٤٠ - دار العودة - بيروت ، وكذا : ديوان الشعر العربى - المجلد الثانى - دار الفكر ط ثانية صـــ م ، ن.

تمرد المتنبى وغربته ووحدته

عمل التطور الاجتماعى وتزايد السكان وتكاثفهم فى « المدينة » على إضعاف الصلات الحميمة بين الشاعر والآخر، وبينه وبين الطبيعة..

وزاد التصدع والضياع، وصار المجتمع كتلة كثيفة معتمة تحول بين الشاعر والضوء، فازداد شعوره بأنه منبوذ ، محاصر، مخنوق. لكن ردود فعله كانت قوية ، تتراوح بين الوحدة والسخرية، والتعالى والرفض. وفى هذا كله كان يشعر أنه يعيش فى « زمان القرود » كما يعبر « أبو نواس ».. [(١)].

فى شعر « المتنبى » يأخذ تمرد الشاعر على المجتمع بعداً أكثر تألقا وشخصانية. المتنبى يفرز نفسه، ويعرضها عالما فسيحا من اليقين والثقة والتعالى فى وجه الآخرين وضدهم. وهو فى ثنايا شعره كله يحتضن ذاته ويناجيها ، إن شعره كتاب فى عظمة الشخص الإنسانية ..

المتنبى روح جامحة ، تياهة ، تتلاقى فيها أطراف الدنيا، إنه وحيد :

ألح علىّ السقم حتى ألفته	وملّ طبيبى جانبى والعوائد
أهم بشىء والليالى كأنها	تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة	إذا عظم المطلوب قل المساعد[(٢)]

بل هو الوحيد، فوحدته قدر محتوم ، لأن الإنسان خليل نفسه..

المتنبى وحدة غاضبة لا يرضيها شىء ، لكن وحدته ليست هربا من العالم، ليست وحدة اللجوء إلى الراحة والهدوء، بل وحدة مجابهة

(١) المرجعان السابقان . مقدمة للشعر ص٣٨ ، وديوان الشعر ج٢ صـ ط ، ى .
(٢) الديوان ١ / ٣٩١ - ٣٩٣ وبين البيت الأول والثانى بيتان لم نذكرهما .

العالم، وحدة الألم الكبير، فمن لا يملك غير آفاق لا يصل إليها تمتلئ أعماقه بالمهاوى الأليمة .

ولقد اختار المتنبى الغربة مؤمنا ألا عظمة إلا فى نفسه ، صديق القلعة والريح :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ... ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
يقولون لى: ما أنت؟ فى كل بلدة ... وماتبتغى؟ما أبتغى جل أن يسمى[(١)]

* * *

فما حاولت فى أرض مقاما ... ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق ، كأن الريح تحتى ... أرجهها جنوبا أو شمالا[(٢)]

إنسان المتنبى موجة لا شاطئ لها، دائما على حركة. إنه أول شاعر عربى يكسر طوق الاكتفاء والقناعة، ويحول المحدودية إلى أفق لا يجد. شعره للحركة، للحرارة ، للطموح، للتجاوز ، إنه جمرة الثورة فى شعرنا ، جمرة تتوهج بلا انطفاء، إنه طوفان بشرى من هدير الأعماق. . .[(٣)].

* * *

(١) نفسه ٤ / ٢٣٣ .

(٢) نفسه ٣ / ٣٤١ .

(٣) مقدمة للشعر العربى ص٥٥ - ٥٧ بتصرف وايجاز ، وديوان الشعر العربى ج٢ ١٩ - ٢٢ .

وهناك أسباب عديدة كانت وراء تكوين شخصية المتنبى ، تلك الشخصية المتميزة جدا فى معجم شعراء العربية ، منها :

١ - نسبه :

وما من دارس لشعر المتنبى إلا خاض فى ذلك ، وأدلى بدلوه فيه. فمن ذاهب إلى أن المتنبى شريف[١]، ابن أمير علوى ثائر، انتهت ثورته بمقتله . وآخر قائل بأنه لقيط دعى[٢]. . واضطر المتنبى إزاء ذلك إلى إخفاء نسبه ، وعدم التعرض له بالذكر، إما خوفا، وإما خجلا .

« وربما كان مرد تجاهل الشاعر لأبيه وجده وعائلته إلى أنه كان يعتبر الفضائل الإنسانية كلها تجمعت فى شخصه من فروسية ، وبطولة ، وشجاعة ، وفكر، وشعر ، . . . »[٣] إلخ .

غاية الأمر أن المتنبى لم يفخر بنسبه ، ولعل ذلك كان دافعاً له منذ نعومة أظفاره لإثبات ذاته، وبناء مجده بيده، وإحراز تفوق يغنيه عن التغنى بآبائه وأجداده.

كان المتنبى « يتخطى مشكلة الكلام عن نسبه بكبريائه وتعاليه، وكان يرى الفخر بالآباء للعاجزين بأنفسهم ، المتخلفين بمواهبهم وذواتهم »[٤].

---

(١) العلامة محمود شاكر فى كتابه : المتنبى ١٦٧ وما بعدها مطبعة المدنى سنة ١٩٨٧ م .

(٢) هو الدكتور / طه حسين فى كتابه « مع المتنبى » ١٢ - ١٩ وهو ناقل فى ذلك عن القدماء وانظر : المتنبى شاعر مكارم الأخلاق ص٩٦ أحمد الشامى .

(٣) المتنبى شاعر السيف والقلم د / فوزى عطوى ص١٣ .

(٤) الشعر العباسى د / محمد أبو الأنوار ص٤٤٤ ، ٤٤٥ دار المعارف .

وقد تردد ذلك كثيرا فى شعره ، **يقول مثلاً** [١] :

ولست بقانـع من كل فضل　　　بأن أعـزى إلى جـد همـام

ويقول [٢] :

أنا ابن من بعضـه يفوق أبا الـ　　　ـباحث والنجل بعض من نجله
وإنما يـذكـر الجـــدود لـهم　　　من نفـــروه وأنفـــذوا حـــيله
فخـرا لعضب أروح مـشتـمله　　　وسـمـهـرى أروح مـــعـتـقله
وليـفخر الـفخر إذا غـدوت به　　　مـــرتديا خـــيـــره ومنـتـــعله
أنـا الذى بـين الإلـه بـه الـــ　　　أقـدار والمرء حـيـثـمـا جـعله
جـــوهرة يفـــرح الكرام بهـــا　　　وغـصـة لا تـسـيغـهـا السـفله

ويقول فى رثاء جدته لأمه[٣]:

ولو لم تكونى بنت أكـرم والد　　　لكان أباك الضخم كونك لـى أما

٢ - جدته لأمه :

فقـد كان لتلك المرأة أثر بارز في شخـصية المتنـبي ، وذلك أنها وليت شؤونه بعد وفاة أمه ، فكانت أمه وجدته فى آن واحد، بل إنه كان يناديها بأمه . .

ويبدو من تتبع أخـبارها أنها كانت ذات شـخصية قوية ، وأنهـا حببت إليه الكثير من الفضائل ، كانت توقـد فى قلبه نيران الثورة وتؤرثها بالحقد على قوم بأعيـانهم ، وتدر به على كرائم الخلق كالصـدق والأمانة والوفاء

---

(١) الديوان / البرقوقي ٤ / ٢٧٥ .
(٢) نفسه ٣ / ٣٨٣ .
(٣) نفسه ٤ / ٢٣٣ .

وحب المجد، والتطلع إلى العلياء، والجرأة المستنفرة التى لا تتهيب.. فلما ماتت رثاها بقصيدة تدل على أنها كانت تملأ عليه أقطار نفسه[١].

٣ - عصره ومجتمعه :

فقد وجد المتنبى فى عصر « عظمت الشخصية الفردية فيه حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط فى التاريخ الإسلامى، وضعفت قوة الجماعة حتى كادت لا تكون شيئا يذكر، ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة، وتحكمت فى الأفراد، وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم، وامّحى الإيثار أو كاد يمحى ، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التى تعتمد عليها الحياة الاجتماعية المستقرة، ولم يكن غريبا أن يمكر الصديق بصديقه ، ويغدر الخليل بخليله، ويكيد الابن لأبيه ، ويبغى الأخ على أخيه، وتنتهك الحرمات التى أمر الله أن ترعى .

« فى هذه البيئة التى كان الدم يصبغها من حين إلى حين، ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر ولد المتنبى . بيئة كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكراً من سفك الدم ، هو النهب والسلب، واستباحة الأعراض وانتهاك الحرمات، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين... »[٢].

كانت الحالة السياسية فى عصر المتنبى صاخبة مضطربة، مليئة بالفوضى فى نواحيها السياسية والدينية والمذهبية، وما ينشأ عن هذا من فتن وقلاقل وثورات وتخريب، وتحزبات لأمراء أو مذاهب، وقيام دولة وسقوط أخرى، وقد عم لهذا الإجرام واستخفاف الناس بالخلق والدين، مما ساعد وهيأ على إيجاد فرق مخرفة مفسدة[٣].

---

(١) المتنبى / شاكر ١٩١ .

(٢) مع المتنبى ص٣١ - ٣٢ ط ١١ .

(٣) أبو الطيب - بلاشير ٨ - ١٠ وانظر المتنبى ب/ شاكر ١٩٢ .

ضعفت الامبراطورية العباسية ضعفا مهينا، أدى بها إلى الانقسام والتفتت، ونشأت دويلات مستقلة هنا وهناك.

وبسط الإخشيديون سلطانهم فى جنوبى الشام، ففاضت نفس المتنبى بالسخط على الأوضاع السياسية الفاسدة التى يراها بعينه، إذ رأى كيف يتحكم الأعاجم فى العرب، وكيف أصبح العرب يرعاهم هؤلاء العبيد كأنهم قطعان من غنم لا حول لها ولا قوة[١]. يقول :

وإنما الناس بالملوك وما	تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب	ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم	ترعي بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه	وكان يبرى يظفره القلم

كما كان عصرا « شديد التناقص ، يكاد يخلو من الانسجام مع نفسه لما يعج به من أضداد... كان عصرًا لا يلتقى بسهولة مع رجل بهذه الأنفة وهذا التوحد، رجل مستقل الموقف والنظرة، يصدر عن فعل نابع من مبدأ أو رؤية تدفعه من الداخل مشفوعة عبر هبة لفظية وإبداعية خارقة»[٢].

من ثم امتلأت نفسه سخطا ، وأحس بالوحدة والغربة فى هذا المجتمع، الذى يراه سلبيا، كأنه يقاد بالرسن... وداعبته نفسه، وتحركت مطامحه أن يكون ملكا أو على الأقل - أميرا، فهو أهل لذلك ، وقد صرح به فى شعره ، وجرَّ عليه متاعب خطيرة .

(١) فى الشعر العباسى - نحو منهج جديد د / يوسف خليف ص١٢٤ والأبيات فى الديوان ٤ / ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) المتنبى وشعره : التناقص والحل - ينابيع الرؤيا / جبرا إبراهيم جبرا .

أبرز صفاته :

اتصف المتنبى بصفات عديدة كان من أبرزها :

* القوة ، والاستعلاء ، وفرط الإعجاب بالنفس، والغرور ، **يقول**(١):

إن أكن معجبا فعجب عجيب　　　لم يجد فوق نفسه من مزيد

ويقول(٢):

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه　　　فما أحد فوقى ،ولا أحد مثلى

ويقول(٣):

وفؤادى من الملوك وإن كا　　　ن لسانى يرى من الشعراء

ويرى نفسه أشعر الشعراء جميعا منذ الجاهلية ، وأن الشعراء عالة عليه، فهو السابق وهم مصلون ، **يقول**(٤):

أجزنى إذا أنشدت شعرا فإنما　　　بشعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى　　　أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

ويقول(٥):

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله　　　إذ القول قبل القائلين مقول

ويقول(٦):

إن هذا الشعر فى الشعر ملك　　　سار فهو الشمس والدنيا فلك

---

(١) الديوان ٢ / ٤٧ .
(٢) نفسه ٢ / ٢٨١ .
(٣) نفسه ١ / ١٥٩ .
(٤) نفسه ٢ / ١٤ ، ١٥ .
(٥) نفسه ٣ / ٢٣٠ .
(٦) الديوان ٣ / ١١٣ .

ويقول[١]:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى	وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفـونى عن شواردها	ويسهر الخلق جـراها ويختصم

ويقول[٢]:

لا تجســر الفصحـاء تنشد ههنا	بيـتـا ولكنى الـهـزبر البـاسل
مـا نال أهل الجـاهلـيـة كلهم	شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

لقد كان بنظر إلى الناس من عل، بعين السخط والازدراء، متهما إياهم بالغباوة والحقارة والجهل والسفاهة . .

وقد جر ذلك عليه متاعب جمـة ، فكثر الحساد والحاقدون ومكروا له، وكان لذلك كله عواقبه .

* الطمـوح وبعد الهـمة ، وعظم المطلب ، وانصـرافه عـن سفـساف الأمور إلى معاليها* :

وكان وراء هذا الطموح عبقرية، ونبوغ، وذكاء، وبعد نظر، فضلا عن مكانته فى عـالم الشعر . وشعره زاخـر بهذا الطموح، وسيـرد بعضه فى ثنايا هذه الدراسة .

* صلابتـه وقوة شكيمـته، وإيمانه بمذهـب القوة. وكراهتـه للضعف والتخـاذل والاستســلام ، وسيطر على أفكاره حب القـتل والبطش وذلك منـذ كان صبـيا فى « الكتاب » ، وكان غزير شـعر الرأس ، منسـدلـه ،

(١) نفسه ٤ / ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) نفسه ٣ / ٣٧٦ .

* راجع / المتنبى / شاكر ص١٨٢ .

فقيل لـه : ما أحسن هذه الوفرة ! ! فأجاب [١] :

لا تحـسن الوفــرة حـتى ترى　　منشــورة الضفــرين يوم القتــال
على فـتى مـعـتـقل صـعـدة　　يعلهـا من كل وافى السبـال[٢]

وهو يـؤمن بفلسـفـة القوة ، وتكوينه النفـسى والمزاجى مـشرب بهـذه الرغبة . . .

يقول [٣]:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى　　حـتى يراق علـى جـوانبـه الدم

ويقول[٤]:

ومن طلب الفـتح الجليل فـإنما　　مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

وديوانه زاخر بتلك اللغة ، لغة الدماء والقتل والبطش .

وهناك تشابه كبير بينه وبين طرفة بن العبد من حيث :النشأة ، واليتم، الفقـر ، الذكاء ، النبوغ ، ومـا وقع على كليهمـا من ظلم. .إلخ. ومثل هذه الشخصيـة لا ترضى الضيم، ولا تقنع بالقليل، لا تـذل ولا تتطامـن أو تخضع، بل تجد وتدأب وتسعى لتحصيل ما تستطيع من مجد[٥].

من هنا لم يكن كســائر الناس يتعلقـون بـأوطانهـــم، ويحنون إليهـا ، إنما كان وطنه هو المكان الذى يرى فيه تحقيق أمله، فآثر السفر والترحال ،

---

(١) الديوان ٣ / ٢٧٩ وانظر / المتنبى / شاكر ص١٨٤ .
(٢) راجع : المتنبى فى مصـر والعراقيـة ص٤٢ وما قبلهـا ، موازنة بين الحكمة فى شـعر المتنبى والحكمة فى شعر أبى العلاء د / زهدى صبرى الخواجا ص٦٣ .
(٣) الديوان ٤ / ٢٥٢ .　　(٤) نفسه ٤ / ١٠٤ .
(٥) راجع كتابنا : تمرد طرفة أسبابه وأصداؤه فى شعره .

والتنقل هنا وهناك ، **فقال**[١]:

بم التعلل ؟ لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث ... ما دام يصحب فيه روحك البدن

وصار لشدة سعيه ودأبه وجده فى سبيل تحقيق الحلم وكأنه يصارع الزمان **يقول**[٢]:

أهم بشئ والليالى كأنها ... تطاردنى عن كونه وأطارد

إلا أنه فى رحلته تلك بحثا عن المجد ، وسعيا للإصلاح لم يجد معينا له وظهيرا ، ومن هنا كان إحساسه بالغربة والوحدة ، وبالتالى سخط على بنى البشر جميعا . قال وهو فى عنفوان شبابه[٣]:

إن أكن معجبا فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى ... وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها اللـ ... ـه غريب كصالح فى ثمود

يا لها من نفس متوثبة ، وروح ثائرة ، تدور عليها دائرة اليأس، ويضيع الحلم أدراج الرياح، وتكاد النفس تذهب حسرات لما فى الأمة من سلبية ، وعدم مبالاة، وتخل عن الحق ، وسكوت على الظلم!!

---

(١) الديوان ٤ / ٣٦٣ ، ٣٦٤ .
(٢) الديوان ١ / ٣٩٢ وقد سبق .
(٣) نفسه ٢ / ٤٧ ، ٤٨ .

يقول الأستاذ العقاد[1]:

« والحقيقة أن المتنبى جهل نفسه ، ولم يكن صادق النظرة فى أمله، فأضله الأمل الكاذب عن كنه قدرته وطبيعة عظمته، وأحس من نفسه السمو والنبالة ، فظن أن السمو لا يكون إلا بين المواكب والمقانب، وأن النبالة لا تصح إلا لذى تاج وصولجان ، وعرش وإيوان ، وسيف يضرب الأعناق ، ورمح يرتوى بالدماء، وقد كان الحال كذلك فى عصره، وكان هذا المجد الذى لا مقياس غيره . .

« وظل يسعى طول حياته إلى شىء وأراد الله به شيئا آخر ، فأحسن الله إليه من حيث أراد هو أن يسئ إلى نفسه . . . ».

* * *

(١) مطالعات فى الكتب والحياة ١٢٥ وما بعدها .

بين يدى القصيدة

ظلت حياة المتنبى تتـراوح بين اليأس والأمل ، وبين القنوط والطموح، حتى جاء اليوم الذى أشرقت فيه آماله، وغاب يأسه وقنوطه، حين اتصل بسيف الدولة ٣٣٧ هـ .

قضى المتنبى فى بلاط سيف الدولة وإلى جواره تسعة أعوام، أُكرم فيها أيما إكرم. ووجد المتنبى فى سيف الدولة وبيئـته ضالته المنشودة، إذ كانت بيئة فروسية ، وشجاعـة ، وإقدام، وغزو ، وحرب ، وكر وفر، ونصر، وهجوم ، ودفاع . وهى أمـور تتفق فى مجملـها مع طبيعة المتـنبى المحبة للقتال، النازعة إلى رؤية الدمـاء تهرق ، والأرواح تزهق. وجد المتنبى فى سيف الدولة الغـازى المنتصـر القوى ، وهناك أوحى إليـه إلهامه الشـعرى بنوع جديد من الشعر، فـيه القوة كل القوة، وفيه كل ما يتطلبـه من تعبير عن ذاته وهو فى كنف هذا الأمير العربى الذى استصـحبه معه فى غزواته وأدناه منه ليسجل ويصف ما يراه رؤيا العين[1].

ولما كان كـل ذى نعمة مـحسودا فـقد كـثر حسـاد المتنبى ، وزاد من حسدهم له، وغيظهم مـنه، وحقدهم عليه صلفُه وغروره واحتـقاره لغيره من الشعراء وغيرهم .

« وكـان من عيـوب المتنبى - إن صـح أنهـا عيـــوب - انـه كـان مـن واقـع فـرديته الشديـدة لا ينظر بعين الرضـا إلا إلى الشخـصيـة المحورية فقـط، أمـا الـورزاء والكتاب. . .إلخ فلم يكن يلقى بالالهم، بل قـد كان يلـذ له أن يستثيرهم ، من هنا كانت تسهل الوقيعة به »[2].

وقد كان. . .

---

(١) راجع : الخيال الشعـرى عند أبى الطيب المتنبى ص١٣ وما بعدها، وأبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ص٦٩ .

(٢) دراسات فى النص الشعرى ص١٨٣ د / عبده بدوى .

فقد نجح هؤلاء فى الكيد له وصنع جفوة بينه وبين سيف الدولة...

وما كان من المتنبى إلا أن غادر حلب وأميرها قاصدا مصر وكافورها. ذهب إلى مصر يدفعه غروره بأنه سيحصل على كل ما يريد ، وأن لكافور الشرف بوجود المتنبى فى مملكته وإلى جواره .

ورحب كافور بالمتنبى ، وأكرم وفادته، ونال الكثير من مدائحه.. إلا أن المتنبى لم يكن يريد مالا ولا شيء غير ولاية من ولايات مصر يوليه عليها كافور .

يقول فى إحدى مدائحه[1]:

إلى الذى تهب الدولات راحته ... ولا يمن على آثار موهوب

ويقول مستنجزا وعده له بالولاية[2]:

فإن نلت ما أملت منك فربما ... شربت بماء يعجز الطير ورده

ووعدك فعل قبل وعد لأنه ... نظير فعال الصادق القول وعده

بل يقول فى صراحة[3]:

إذا لم تنط بى ضيعة أوولاية ... فجودك يكسونى وشغلك يسلب

وكان لكافور فى المتنبى رأى جعله يخشى لو ولاه ولاية[4].

---

(١) الديوان ١ / ٢٩٦ . (٢) نفسه ٢ / ١٢٨ .

(٣) نفسه ١ / ٣٠٧ .

(٤) نُسب إلى كافور أنه قال للمتنبى : (أنت فى حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سَمَتْ نفسك إلى النبوة ، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك ؟) راجع : الصبح المنبى ١١٢ ، ومقدمة الديوان - شرح البرقوقى ص٥١ .

وجد المتنبى فى كافور مماطلا، فشعر بخيبة أمله، وضلال سعيه ، وندم على مغادرته وقدومه إلى مصر .

واستبد القلق به ، وألحت عليه الحيرة ، وكانت « صفحة طويلة من الصراع بين المتنبى بسبب طموحه وبعد همته وبين كافور بسبب حرصه ودهاء سياسته وحصافته . . . »[1].

وأحس كافور بما يفكر فيه المتنبى وهو الهروب من مصر، فخشى من سلاطة لسانه، ومن ثم ضرب عليه سوراً من العيون والجواسيس ترصد حركاته، وترقب تصرفاته، وتحول بينه وبين الخروج الذى أصبح فؤاده فارغا من كل شىء إلا منه . .

وبذلك حدد كافور إقامة الشاعر، فكان سجنا رهيبا، وزاد الطين بلة مهاجمة « الحمى » له هناك . .

وهنا انهدّت الآمال المبنية ، وانهارت المطامح ، وأخفق الشاعر فى رحلته . .

« وهناك فى الغالب تلازم بين الإبداع الفنى والإخفاق فيما تواضع عليه الناس من أمور الحياة ، ومن هنا لا يجد الشاعر مناصا من الاعتصام بذاته، ثم يتحول إما إلى طفولة مغلوبة ، أو رجولة متمردة . ولقد كان المتنبى من النوع الآخير . . . . »[2].

كانت رائعة المتنبى « الميمية » صدًى وأثراً ونتيجة لهذه الأحداث وقد أنشدها فى ذى الحجة ٣٤٨ هـ .

***

---

(١) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ص٢٩١ .

(٢) دراسات فى النص الشعرى - ص١٨٤ د / عبده بدوى .

القصيدة (*)

١ - ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

٢ - ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام

٣ - فإني أستريح بذي وهذا وأتعب بالإناخة والمقام

٤ - عيون رواحلي إن حرت عيني وكل بغام رازحة بغامي

٥ - فقد أرد المياه بغير هاد سوى عدي لها برق الغمام

٦ - يذم لمهجتي ربي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذمام

٧ - ولا أمسي لأهل البخل ضيفا

وليس قرى سوى مخ النعام

٨ - فلما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام

(*) الديوان ٤ / ٢٧٢ - ٢٨٠ .

(١) يجل : يعظم . الكلام : بفتح الكاف . وقال ابن القطاع : أراد الكلام وهي الجراحات.

(٢) ذراني : اتركاني . الهجير : حر الظهيرة . اللثام : الغطاء .

(٣) بذي : أي بالفلاة . وهذا : أي بالهجير . الإناخة : النزول . المقام : الإقامة .

(٤) الرواحل : جمع راحلة وهي الناقة . حرت : تحيّرت . البغام : صوت للناقة لا تفصح به، وقيل : هو صوتها عند التعب . الرازح من الإبل : الهالك هزالا، ورزحت الناقة ترزح رزوحا ورزاحا : سقطت من الإعياء هزالا.

(٦) مهجتي : روحي . الذمام العهد والخفارة .

(٧) وليس قرى : أي وليس لي قرى .

(٨) الخب : المكر . الود : الحب والصداقة .

٩ - وصرت أشك فيـمن أصطفيه لـعـلـمى أنـه بـعـض الأنـام

١٠ - يحب العاقلون على التصافى وحب الجـاهلين عـلى الوسـام

١١ - وآنف من أخـى لأبى وأمى إذا مـا لم أجـده مـن الكرام

١٢ - أرى الأجداد تغلبـها كثـيرا على الأولاد أخـلاق اللئـام

١٣ - ولست بقانـع من كل فضل بأن أعـزى إلى جـد همـام

١٤ - عـجـبت لمن له قـد وحـد وينبـو نبـوة الـقـضم الكهـام

١٥- ومن يجـد الطريق إلى المعـالى
فـلا يـذر المـطـى بلاسـنـام

١٦ - ولم أرفى عـيـوب الناس شـيـئـا
كنـقص القـادرين على التـمـام

١٧ - أقمت بأرض مصر فلا ورائى تخب بـى المطى ولا أمـامى

١٨ - وملنى الفـراش وكان جنبى يمل لـقـاءه فى كـل عـام

١٩ - قليل عائدى ، سقم فؤادى كثير حـاسدى ، صعب مرامى

٢٠ - عليل الجـسم ممتنع القـيـام شـديد السكـر من غـيـر المدام

(١٠) التصافى : الصفاء . الوسام : الوسامة والحسن .

(١١) آنف : أستنكف .

(١٢) الأجداد : الآباء ، وقد تعنى : الحظوظ .

(١٣) أعزى : أنسب . همام : سيد شجاع .

(١٤) قد : قامة . حد : حد السيف . ينبو : يكل عن الضرب به . القضم : السيف المفلّل . الكهام : الذى لا يقطع .

(١٥) المطى : الإبل . السّنام : ما ارتفع من ظهر البعير .

(١٧) تخب : الخبب : ضرب من السير . المطى : الإبل .

(٢٠) المدام : الخمر .

٢١- وزائرتى كـأن بهـا حيـاءً فـليـس تزور إلا فـى الظـلام

٢٢- بذلت لهـا المـطارف والحـشـايا

فـعـافـتـهـا وباتت فـى عظامى

٢٣- يضيق الجلد عن نفسى وعنها فـتـوسـعـه بأنواع السـقـام
٢٤- إذا مـا فـارقـتنى غـسلتنى كـأنا عـاكـفـان عـلى حـرام
٢٥- كأن الصبح يطردها فـتجرى مـدامـعـهـا بـأربعـة سـجـام
٢٦- أراقب وقتها مـن غير شوق مـراقـبـة المشـوق المسـتـهـام
٢٧- ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقـاك فى الكرب الـعظام
٢٨- أبنت الدهر عـندى كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام؟!
٢٩- جرحت مجرحـا لم يبق فيه مكان للسـيـوف ولا السـهـام
٣٠- ألا ياليت شعـر يدى أتمسى تصـرف فى عـنان أو زمـام ؟

---

(٢١) زائرتى : يقصد الحمى .

(٢٢) المطارف : جمع مطرف ، وهو الذى فى جنبه علمـان ، وقيل : هو رداء من حرير مربع ذو أعلام تلبسه الحسناوات . الحشايا : جمع حشية ، وهى ما حشى من الفرش مما يجلس عليه . عافتها . كرهتها وأبتها .

(٢٥) سجام : سجم الدمع أى سال وانسكب ، وأربعة سجام : أى مجارى الدمع وهى: الموقان فى مقدم العين ، واللحاظان فى مؤخرها .

(٢٦) المستهام : العاشق الذي هام بمعشوقه .

(٢٨) بنت الدهر : الحمي ، وبنات الدهر : شدائده ومصائبه .

(٣٠) يا ليت شـعر يدي : يا ليت يدي تعلم . العنان : سـير اللجـام . الزمام : مـقود الإبل .

٣١- وهل أرمى هواى براقصات مـحـلاة المقـاود باللـغـام ؟
٣٢- فربتما شـفيت غليلَ صدرى بسـيـر أو قناة أو حـسـام
٣٣- وضاقت خطة فخلصت منها خلاص الخمـر من نسج الفدام
٣٤- وفـارقت الحـبيب بلا وداع وودعت الـبـلاد بلا سـلام
٣٥- يقول لى الطبيب : أكلت شيئاً وداؤك فى شـرابك والطعـام
٣٦- ومـا فى طبـه أنى جـواد أضـر بجـسمـه طول الجـمـام
٣٧- تعـود أن يغبـر فى السـرايا ويدخل من قـتـام فى قـتـام
٣٨- فأمـسك لا يطال له فـيرعى ولا هو فى العليق ولا اللجـام
٣٩- فإن أمرض فما مرض اصطبارى وإن أحـمم فمـا حم اعتـزامى

---

(٣١) هواى : يقـصد أهدافـه التى يتـمنى تحـقيـقهـا . براقـصـات : أى إبل ترقـص . والرقـص : هو ضرب من السير . محلاة مـزينة بحلى . المقاود : جمع مِقْوَد وهو زمام الناقة أو البعـير . اللغام : لعاب الإبل وهو الذى يخرج من أفواهـها على هيئة زبد أبيض .

(٣٢) الغليل : العطش ، و قـد يراد به كل ما حـز فى الصدر من حـقد وغيـره . قناة : رمح . حسام : سيف قاطع .

(٣٣) خطة : الخطة هى الأمر أو التـدبير المحكم . خلصت منهـا : خرجت منها خـالصا سليما. الفدام : ما يجعل على فم الإبريق ونحوه ليصفى فيه .

(٣٦) الجمام : الراحة .

(٣٧) يغبّر : يثير الغبار . السرايا : جـمع سرية وهى القطعة من الجيش . القتام : الغبار الكثيف . وأراد بقوله « دخول القتام » : حضور الحرب .

(٣٨) فأُمْسِـك : أى الجواد . لا يُطال له : أى لا يُرخى له الحبل المربوط به فيـرعى حتى يشبع. العليق : مـا يوضع فى المخلاة لتـبلغ به الدابة فى سفرها . اللجام : مـقود الفرس. والمعنى : أنه نزع منه اللجام فلا حاجة لركوبه ، أى جُرِّد من كل شىء .

(٣٩) أُحْمَمْ : من الحمى .

٤٠ - وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام
٤١ - تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
٤٢ - فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

* * *

(٤٠) الحِمام : الموت .
(٤١) السهاد : السهر والأرق . الكرى : النوم . الرجام : القبور - واحدها رجم ، وأصلها حجارة ضخام تجعل على القبر .
(٤٢) ثالث الحالين : الموت .

الاغتراب المرير (*)

١ - (التوحد مع الفلاة والهجير) :

يبدأ الشاعر قصيدته متأثرا بالتراث الشعرى ، فهو يخاطب اثنين على عادة القدماء « ملومكما » . . ويخالفهم فى أنه لم يستدر عطفهم حتى يدعا لوْمه، وإنما يعلن - فى أنفة واعتداد بالنفس - أنه أكبر قدراً وأعظم من أن يلام، وبالتالى فهما أقل شأنا، وأحقر قدرا من أن يلوماه .

وإذا كان النقاد المحدثون قد انتبهوا إلى أهمية المطلع فى الدلالة على نفسية الشاعر وقت إنشاء قصيدته، ودلالته على جانب كبير من شخصية الشاعر، أو على مفتاح تلك الشخصية[1] فإن هذه الميمية أبانت عن الأمرين معا فى مطلعها : إنه يدل على شخصية المتنبى الذى طالما افتخر بنفسه، ليس كفخر الشعراء، بل كان مغرورا إلى أبعد مدى ، وكان - كما أسلفنا - ينظر إلى مَنْ سواه من فوق. يحتقر الآخرين، ولا يعبأ بهم. . وتأمل الألفاظ المستخدمة ديجلّ ، فوق . . .).

ومنذ أول كلمة فى المطلع يشعرك باغترابه فى مجتمعه، وذلك حين « استخدم الاسم الظاهر « ملومكما » بدلا من الضمير « أنا » ليعبر عن نفسه، وكأنه يتحدث عن شخص غائب عنه »[2].

(*) هذا الاغتراب ليس مقصورا على هذه الأبيات - فى بداية القصيدة - بل يسرى داخل القصيدة حتى نهايتها كما سنبين .

(١) راجع : مطلع القصيدة العربية « دلالته النفسية للدكتور عبد الحليم حفنى - ط هيئة الكتاب .

(٢) فى ميزاق النقد الأدبى ٩٨ .

وأفعاله فوق مستوى الكلام فكيف تقيّم بكلام ؟!. وإذا كان « الكِلام » بكسر اللام - فهو جمع كَلْم ، أى أن أفعالى أكبر قدرا من أن يمسها سوء من جراء كلام الناس أو لومهم أو انتقادهم .

ويظهر - بوضوح شديد - منطق الإباء والرفض والتعالى على الغير فى المطلع. رفض المجتمع كله بما فيه وبمن فيه، لأنه على باطل وخطأ، أما المتنبى فهو - وحده - على صواب .

وفى بيته الثانى إيحاء بالقيود والأغلال التى أحاطت به،وهو يحاول الخلاص منها، وهى عيون اوجواسيس « كافور » التى بثها حول مكان إقامة المتنبى ترقبه وترصد حركاته - كما سيأتى - ، وذلك من خلال لفظة واحدة هى قوله : « ذرانى » .

ويلجأ الشاعر إلى « الفلاة » - على عادة القدماء . حين كانوا يحملون هومهم على نوقهم ليصرموها فى تلك « الفلاة ».

وهو إذا يرحل إلى « الفلاة » يقرر أنه « قادر على اختراقها، مغمض العينين ، فلديه خبرة طويلة بذلك، لقد سلكها ودوّخها - كما كان يقول القدماء فى وصف أدلائهم فى الصحراء - جريئا على اقتحامها دون دليل يهديه، سعيدا بما يلاقيه فيها من أهوال وصعاب. ها هو بدوى ، ابن فلاة ، تناديه فيلبى نداءها ، بل هو يسعى إليها من غير نداء، وهكذا ذهب يصور فتنته الطاغية بتلك الفلاة »[1].

حتى الفلاة هو خبير بها ، ولا يحتاج إلى هاد أو دليل، فهو يؤثر الوحدة فى البيداء على العيش مع الناس فى القصور ، وإن جرّ عليه ذلك

---

(١) فى الشعر العباسى د / يوسف خليف ١٥٠ (بتصرف قليل) .

ما جرّ. ومنطق الرفض يسرى مع البيت - كذلك - فى قوله « بلا دليل ».

وهو يفضل مع الفلاة لفح الهجير ، وأرى أنه يرمز بذلك إلى صفة من صفاته وهى الصدق والصراحة والجرأة فى الحق ، وأنه لا يظهر خلاف ما يبطن وإن كلفه ذلك ما كلفه، (بلا لثام).

وفيه إشارة إلى خصال سيئة سادت المجتمع آنذاك من نفاق، ومداهنة، وسكوت على ظلم . . . إلخ .

وكأنى بالشاعر وقد تعجل الإشارة إلى حال شعب مصر الذى سكت على الظلم ورضى بأن يُحكم من عبد أسود، وكان - فى نظر المتنبى - شعبا سلبيا يرضى بالذل والهوان .

ويعلق الدكتور مصطفى ناصف على الأبيات قائلا[1]:

« وأولى بنا فى مثل هذه الأبيات إذا أخذت مأخذا خاليا من الشعور بالنقص إلى حد ما أن يقال : إن الشاعر يبحث عن الحياة الساذجة النقية، أو يريد أن يعود إلى الطبيعة ، أو يحلم بما يشبه مغامرات الطفولة التى لا تبعد كثيرا عن مغامرات الشعر والإلهام. « ومع ذلك فإننا لا نستطيع مهما نتعلق بفكرة الصحراء والعودة إليها وما يحمله ذلك من شعور إيجابى يجب أن يؤخذ فى الحسبان لا نستطيع أن نتجاهل كيف يعرض الشاعر نفسه لطيش العذاب ، وكيف يحب الفلاة والهجير حبا يدعو إلى النظر .

« والهجير نمط متعارف عليه ، يعبر الشاعر من خلاله عن العجز عن

---

(١) اللغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣٥٨ .

التكيف مع المجتمع. فإذا كان هذا العجز قصد إلى ما يسميه الرحلة، وأشاد بالعزلة والانفراد، وأحب السفر وكره الإقامة، فلا يخلو ذلك من صدى العجز والقلق والرغبة فى العكوف على الذات غير المتصلة فى قرارتها بالناس ».

والسفر وتجشم المتاعب والمشاق أمر يعشقه المتنبى عشقا، فهو القائل فى مرثيته جدته[١]:

لئن لذ يوم الشامتين بيومها	فقد ولدت منى لأنفهم رغما
تغرب لا مستعظما غير نفسه	ولا قابلا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة	ولا واجداً إلا لمكرمة طعما
يقولون لى : ما أنت فى كل	وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن

ولطالما سافر، وارتحل ، وتنقل بغية تحقيق الأمل وإصابة الهدف. وإذا كان من طباع الناس حنينهم إلى أوطانهم، وركونهم إليها مع ما يجدون من مضايقات وآلام فإن « المتنبى لا يفزع ولا يألم أن يفارق وطنه إذا نبا فيه المقام، ولا يهمه أن يجد فى أسفاره الشاقة ما يركبه، ففى طاقته السير على الأقدام، وملاقاة أهوال الطبيعة التى لا تطاق ، والقدرة على تخطيها. . . »[٢].

يقول[٣]:

غنى عن الأوطان لا يستفزنى	إلى بلد سافرت عنه إياب

---

(١) الديوان ٤ / ٢٣٣ .

(٢) الشعر العباسى د / أبو الأنوار ص٤٥٧ .

(٣) الديوان ١ / ٣١٦ ، ٣١٧ .

وعن ذملان العيس إن سامحت به

وإلا ففى أكوارهن عقاب

وأصدى فلا أبدى إلى الماء حاجة

وللشمس فوق اليعملات لعاب

عجيب أمر هذا الرجل ، إن الناس يتعلقون بأوطانهم ، ويحنون إليها. وكان من ضمن العقوبات فى الشريعة الإسلامية « التغريب » - وفيه عذاب للنفس - سنة للزانى غير المحصن .

أما المتنبى فإن وطنه الذى يستأهل حبه هو المكان الذى تتحقق فيه آماله وأحلامه ، فالآمال عنده أهم وأغلى من الوطن، ومن ثم ضرب فى الأرض الواسعة يبحث عن ذلك الوطن الذى يحقق فيه هدفه .

وإنه ليتعب بالإقامة، ويستريح بالأسفار، واستخدام لفظ « الإناخة » وهى فى الأصل للإبل كأن الذى يرضى بالإقامة لا فرق بينه وبين البعير .

٢ - (توحده مع الناقة ولجوؤه إلى ربه وسيفه)

وينفض الشاعر يده من الإنس ، مؤثرا الوحدة والتفرد، مكتفيا بالراحلة، متواحدا بها كما فعل عنترة وطرفة وامرؤ القيس وغيرهم . فأصبحت راحته - كل راحته - فى البعد عن دنيا البشر، أولئك الذين « لايعاش فى أكنافهم » .

- على حد قول « لبيد » :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

لقد استبدل عالم الحيوان بعالم الإنسان كما استبدل السابقون

(الشنفرى وتأبط شرا وسائر الصعاليك والمتسردون)[١].

* وعيون الرواحل، والماء ، والسيف هى أصدقاء صوت وحيد موحش، وقد يكون ارتباط السيف بفكرة الوحدة والوحشة غريبا .

* لكن هذه الأبيات تجعل هذا التأويل سائغاً إلى حد ما، فالسيف هنا صديق قوى خيالى يُطمأن إليه حين يعز الأصدقاء، وليس تجسيما للزهو والأنتصار، ولا إشارة إلى التمكن والصلات الناجحة . السيف أقرب إلى الوقاية الشخصية من المجتمع .

« وإذا كانت فكرة السيف من أكثر الأفكار تنوعا فى الشعر فهو هنا فى مثل هذه الأبيات يعبر عن موقف العجز عن التكيف، ويحصن الإنسان فى داخل نفسه ضد المجتمع الذى لا يستطيع أن ينتمى إليه ، ولا يستطيع أن يتجاهل ضرورة هذا الانتماء »[٢].

وحقا ما قال الدكتور يوسف خليف : « إن المتنبى قد أعاد للقصيدة العربية روحها البدوى فى غير انفصال عن روح العصر الجديد بما يحمله من ثقافات عقلية، فحقق بهذا مزاوجة عبقرية بين بساطة البداوة وصفائها وفطرتيها ، وبين ثقافات عصره العقلية بقضاياها المعقدة »[٣].

أرأيت كيف كان الشاعر مغتربا ؟ إن إيثاره عالم الفلاة على ما فيه من مخاطرة ورعب وفزع، واختيار صحبته من الناقة وعيونها وصوتها ، وسيفه ، ولجوئه إلى ربه إنما هو تعبير عن الرفض التام لبنى البشر، أولئك

---

(١) راجع التمهيد (أشهر المغتربين من الشعراء) .

(٢) اللغة بين البلاغة والأسلوبية ص٣٥٩ .

(٣) تاريخ الشعر فى العصر العباسى ص٨ ط القاهرة - مطبعة دار الثقافة سنة ١٩٨١ م .

الذين فيهم من الخلال السيئة والصفات القبيحة من النفاق والرياء والمداهنة والبخل ما يدفعه لهجرهم.

وفى قوله : « إذا احتاج الوحيد » تشعر بمدى الغربة المؤلمة التى يعانيها، فهو وحيد دائما ، وهو يرى نفسه أُمَّةً ، لا أحد غيره يدرك إدراكه ، ويطمع طموحه ، ويفهم فهمه ، ويتصف بالصفات الطيبة والخلال الحميدة مثله... إذاً فليكن وحده ، وليرحل بعيدا..

وهو يفضل الموت جوعا على أن ينزل ببخيل ، وفيه تعريض بكافور الذى بخل بتوليته ولاية من ولايات مصر.

وقد صرح بذلك فى شعر له فقال فى قصيدته (عيد)[1]:

إنى نزلت بكذا بين ضيفهم	عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى	من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ولم يكن كافور وحده المتصف بتلك الصفات، وإنما الناس جميعا، صار النفاق لهم خلقا ، والرياء لهم طبعا ، وليس هناك مخلص فى وده وإنما أصبحوا خداعين ماكرين دجالين...

ولما صار ود الناس خبا	جزيت على ابتسام بابتسام

وجل الذين تعرضوا لهذا البيت فهموا منه أن المتنبى يقابل الخداع بخداع، يقول الدكتور مصطفى الشكعة - مثلا - :

" ضاق " المتنبى " ذرعاً بالناس جميعا، فكلهم في نظره فاسد الأخلاق، مخادع، الأمرالذي جعل منه هو الآخر إنسانا مخادعا مثلهم، شاكاً فيهم، محتقراً كل لئيم ، حتي ولو كان هذا اللئيم أخا شقيقا من أمه

(١) الديوان ٢ / ١٤٢ ، ١٤٣ .

وأبيه . وهو هنا يفجر قضية خلقية، أو بالأحرى قضية ربطها بالأخلاق، مع أنها لم تخرج عن حدود كونها أمراً شخصيا يتصل به دون غيره . . .»[1].

ولكنني أفهم غير ذلك، فالمتنبى الذى رمز إلى صراحته ووضوحه وصدقه وكراهيته للثام - أى النفاق والمداهنة كما أسلفت فى قوله :

ذرانى والفلاة بلا دليل ووجهى والهجير بلا لثام

لا يمكن أن يقول عن نفسه إنه مخادع، حتى ولو خدع. والذى أفهمه أن الشاعر لا يبتسم إلا لمن ابتسم له، يرد التحية بمثلها، وليس فى ذلك نفاق ولا خداع، فإذا كان المبتسم خادعا فلن يخسر المتنبى شيئا إذا قابل ابتسامته بمثلها ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ .

وقد ذكروا أن كافورا كان دائم الابتسام فى وجه المتنبى ، فلما سمع هذه القصيدة لم يبتسم بعدها قط له[2]. ولكن البيت يشير إلى سوء حال الناس ، وفساد طبعهم فى ذلك العصر، وقديما قال الفتى الجاهلى طرفة ابن العبد[3]:

مضى سلفاً أهل الحجا منه والتقى ولا خير فى دهر تولت غرانقه

---

(١) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ٣٢٥ ، وانظر أيضا : البرقوقى فى شرحه للديوان ٤ / ٢٧٤ ، وموازنة بين الحكمة فى شعر المتنبى والحكمة فى شعر أبى العلاء ص٧١ ، إذ يقول عند البيت : « وعلى كره منه كان يتصنع الرياء أحيانا » . وفى ميزان "نقد الأدبى ص٩٦ يقول الدكتور طه أبو كريشة : إن هذا التحول والتغير والرياء ، أصابه بشىء غير قليل من دائهم، فأصبح ينافقهم كما ينافقونه، ويبتسم لهم فى الوقت الذى يكون لهم فيه كراهية وبغضاء. .» والأبيات التالية تؤكد فهمنا.

(٢) وفيات الأعيان / ابن خلكان ٤ / ١٠١ .

(٣) الديوان - بتحقيق الدكتور على الجندى ص٢٢٠ - ٢٢٣ .

فلم يبق إلا شامت بمصيبة — وذو حسد ما تستقيم طرائقه
عدو صديق عابس متبسم — يعاملنى بالمكر حين أوافقه
يجاملنى جهراً إذا ما لقيته — وفى الصدر ما تهدى هديراً شقاشقه

إلى أن يقول :

وأما رجال نافقوا فى إخائهم — ولست إذا أحببت حُراً أنافقه
قلوب الذئاب الضاريات قلوبهم — وألسنهم أحلى الذى أنت ذائقه
فلست إليهم ما حييت براغب — ولا خير فى حب امرئ لا تطابقه

وقد أشرنا - فيما مضى - إلى أن هناك تشابها كبيرا بين ظروف كل من طرفة والمتنبى ، جعلت كلا منهما غريبا فى مجتمعه .

لقد صار المتنبى يشك فى كل الناس، وأصبح سوء الظن هو المسيطر عليه، حتى فى أقرب الأقربين، بل حتى الذين يختارهم ويصطفيهم لا يأمن جانبهم ، وإنما يأخذ حذره منهم، فيكفى أنهم (بعض الأنام).

ومن قبله قال البحترى فى سينيته :

ولقد رابنى نبوا بن عمى — بعد لين من جانبيه وأنس

مثل هذا الذى يرتاب فى الناس جميعهم أليس غريبا فى مجتمعه ؟ بلى، إن الغربة واضحة جد الوضوح هنا وفى الأبيات التالية .

ولفساد الزمان ، واختلال القيم والموازين أصبح الناس ينخدعون بالمظهر، ولا يهتمون بالجوهر، أولئك هم الجهال الحمقى المغفلون، فليس كل جميل المنظر يستحق المحبة ويستأهل التقدير كخضراء الدمن، رائق اللون، وبئ المذاق. ومن ثم كان تحذير الرسول - ﷺ -

أمته : « إياكم وخضراء الدمن » . قيل : وماذاك يا رسول الله ؟ قال : ﴿ المرأة الحسناء فى المنبت السوء ﴾[١].

أما العقلاء فلا يحبون إلا حين يشعرون بصفاء الود، ولا ينخدعون بالمظاهر الكاذبة. وبالطبع يرى المتنبى نفسه أعقل العقلاء ، بل ربما رأى نفسه العاقل الوحيد. ولذا فهو يأنف من أخيه الشقيق إذا كان من هؤلاء الذين لا يستحقون مودته وحبه. وهذا هو ميزانه، يزن به لكل الناس، القريب والبعيد .

ولم يكن المتنبى قد اكتشف ذلك مؤخراً - فى مصر - ؛ بل اكتشفه هناك إبان سطوع نجمه، عند سيف الدولة، لقد ذاق المر من معاملة الناس كما يقول[٢]:

إذا ما الناس جربهم لبيب	فإنى قد أكلتهم وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعا	ولم أر دينهم إلا نفاقا

لقد أصابه من كيد الحاسدين، ووشاية الحاقدين ما رماه فى شراك كافور بمصر، ومن ثم نفض أيديه من الناس كلهم .

ويؤكد الشاعر سوء الأخلاق فى المجتمع بأسره، حين يقرر أن فساد البيئة والتلوث الخلقى يغلب الوراثة التى ينبغى أن تكون أساسا، ويستدل على ذلك بأن أخلاق اللئام هى السائدة مع أن أجدادهم كانوا من ذوى الخلق الكريم .

لقد سخط المتنبى على المجتمع والناس جميعا ، ملوكا ومملوكين، سادة وعبيدا ، كبارا وصغارا ، عربا وعجما . .

---

(١) الحديث .   (٢) الديوان ٣ / ٤٧ .

وقد تأثر به " أبو العلا المعرى " فى لزومياته، غير أن " المتنبى " لم يكن يائسا فى تشاؤمه على نحو يأس أبى العلاء. إنما هو يتشاءم تشاؤم المحروم الذى يحس بلذائذ ومسرات فى الحياة لا يستطيع أن ينالها.. لم يكن المتنبى يرفض الدنيا، وإنما كان يشعر إزاءها بالحرمان الشديد[١].

وهذا التشاؤم فى شعر المتنبى أحد جوانب خمسة - عدها الدكتور شوقى ضيف - تجعلنا نعجب به، هذا التشاؤم جعله برماً بالدهر، ساخطا على الناس، حتى لكأنه ثائر على الدنيا. وهى ثورة يرجعها « ماسينيون » إلى قرمطيته[٢].

* * *

---

(١) راجع : الفن ومذهبه فى الشعر العربى ص٣٤٥ ، ٣٤٦ (بتصرف).

(٢) نفسه ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

طموح عصامي

يستنهض الهمم

١٣ - ١٦

في الناس من هو « عصامي » وفيهم من هو « عظامي » ، وفيهم « العصامي العظامي » وهناك فئة لا ورثت هذا ولا حققت ذاك.

فعامر بن الطفيل عصامي عظامي، يقول [(١)]:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر	وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة	أبى الله أن أسمو بجد ولا أب
ولكنني أحمي حماها ، وأتقي	أذاها ، وأرمي من رماها بمنكبي

والتغلبيون بعد عمرو بن كلثوم « عظاميون » ، نعى عليهم الشاعر اتكالهم على أمجادهم القديمة المسجلة في معلقة « عمرو » ، واستنامتهم قائلا[(٢)]:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة	قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

(*) العصامي : نسبه إلى « عصام بن شَهْبَر » حاجب « النعمان بن المنذر » قال فيه النابغة : نفس عصام سودت عصاما .

: وعلمته الكرَّ والإقداما فصيرته ملكا هماما .

(ديوان النابغة ص٢٤٧) : جمع الشيخ الطاهر بن عاشور - الشركة التونسية وانظر ص٣٣٢ أيضا والعصامي : هو الذي يبني مجده بيده، ويصنع شرفه بنفسه ، لا اعتمادا على حسب ، ولا اتكالاً على نسب.

(١) العقد الفريد ٢ / ١٤٩ وانظر ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٢ / ٤٧ .

(٢) الأغاني ٢ / ١٦٥ ، الشعر والشعراء ١ / ٢٣٦ .

يروونهـا أبدا مـــذكـان أو لهم ‏ ‏ ‏ ‏ يا للرجال لشعر غـير مسئوم

والعظامى شريف النسب رفـيع الحسب لا ينفعه هذا ولا يـفيده ذاك إذا كانت نفسه دنيئة حقيرة ، كما قال الشاعر :

ولا يـنـفـع الأصل مـن هـاشـم ‏ ‏ ‏ ‏ إذا كـــانت الـنفس مـن باهـله

وديننا الحنيف يرد التفاخر بالأنسـاب والاتكال على الأحساب، قال الله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا مـا سعى** ﴾[١]، ﴿ **فـإذا نفخ فـى الصـور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾[٢]. ويقـول الرسـول - ﷺ - : ﴿ .. **ومن بطأ به عمله لم يسرع بـه نسبـه** ﴾[٣]، ويقـول لـذوى قربـاه : ﴿ ... **اشتروا لأنفسكم ، لا أغنى عنكـم مـن الله شيئا** ﴾[٤]. والعصاميـون لا يتكلون على حسب أو نسب ، **قال عبد الله بن معاوية :**

لسـنا وإن كـــرمـت أوائـلـنا ‏ ‏ ‏ ‏ يومـا على الأحـــساب نتكل

نبنـى كـمـــا كــانت أوائـلنا ‏ ‏ ‏ ‏ تبنى ، ونفـعل مـثلمـا فـعلوا

وقال آخر :

كن ابن من شـئت واكـتب أدبا ‏ ‏ ‏ ‏ يغنيك مـحـمـوده عن النسب

إن الفـتى من يقـول : ها أنذا ‏ ‏ ‏ ‏ ليس الفتى من يقول : كان أبى

والمتنبى « عصامى » بصرف النظر عن نسبـه، وشعره زاخر بأبيات يذكر

---

(١) سورة النجم الآية : ٣٩ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٠١ .

(٣) من حديث رواه مسلم وغيره .

(٤) متفق عليه .

فيها عصاميته ، **يقـول**[1]:

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى　　وبنفـسى فـخرت لا بجـدودى

وقـال[2] :

أنا ابن من بعضـه يفوق أبا الـ　　باحث والنجل بـعض من نجله

وإنما يـذكـر الجـدود لـهم　　من نفـروه وأنفـذوا حـيله

فهـو يـرى أن الفخـر بالآبـاء والأجـداد إنمـا هـو للعاجـزيـن الذيـن لا يستطيعون أن ينهضوا بأنفسهم ليصنعوا مجدهم بأيديهم. ثم راح - بعد هذين البيتين اللذين يرد بهما على الباحثين عن نسبه - يذكر انتسابه إلى البأس والشدة والسيف والرمح. .إلخ .

وها هو فى ميميتـه هذه يصرح بذلك، ولا يقنع بمجد موروث عن آباء وأجداد ، إنما يشيـد مجده بيده، ثم يستطرد فـى ذلك المعنى مقرراً أن من أوتى جسـداً قادراً ورزق إمكانات تعينه على تحقـيق أمجاد ثم لا يستـغلها يكون حاله باعثا على العجب . .

ويبـدو أن الشاعـر هنا يشـير إلى شـعب مـصر الذى ركن إلى الدعـة والراحة قانعا بماله من حضارة قديمة، فصار كقبيلة تغلب .

وهو بذلك يحثهم على الثـورة، ويستنهض همـمهم، وحين يـفعلون فإنهم سيخلعون كافورا.

ومدى حـقد وغضب وكـراهية المتنبى كانت أوضح حـين تمنى لونهض فتى مصرى لضرب عنق كافور، وذلك فى قصيدة « عيد ».

(١) الديوان ٢ / ٦٤ .

(٢) نفسه ٣ / ٣٨٣ .

يقول[1]:

ألا فـتى يورد الهـندى هامـتـه كيما تزول شكوك الناس والتهم

لكأنى بالمتنبى وقد فشل فى تحقيق هدفه وبلوغ مأربه أخذ يرسم الطريق لغيره، ويحدد له معالمها، ويحثه على اغتنام الفرص التى يتمنى لو أتيحت له. **فهو القائل**[2]:

أريد مـن زمنى ذا أن يـبلغـنى ما ليس يبلغـه من نفسه الزمن

لا تلق دهرك إلا غيـر مكترث ما دام يصحب فـيه روحك البدن

فمـا يدوم سرور مـا سررت به ولا يرد عليك الفـائت الحـزن

إنـه يحـفز النـفوس إلى الجـد ، والسـعى والدأب، والمضى فى طريق المعالى، وارتياد موارد العز والمجد والرقى.

يريد أن يكون الناس مـثله ، أصـحاب همم عـاليـة، وعزائم قـوية، وطموحـات غير محـدودة. وإذا كان هو قد وضعت فى طريقـه العوائق، فغيره أتيحت له الفـرص، وهيئت له السبل ، لكنه ضل ونبا، ولم يذهب أسنمة إبله إعياءً وإجهاداً من كثرة الأسفار.

وإنه ليتحـسر على أولئك، ويعجب لحالهم، ويرى أن أكـبر عيب على الإطلاق أن تتاح الفـرصة للمرء ليرقـى بها صوب التمـام والكمال ثم هو يتقاعس، ويستسلم للنقص، ويتـخاذل ، ويرضى بالقليل. إنه دنئ الهمة صغيرها، ضعيف النفس حقيرها .

---

(١) الديوان ٤ / ٢٨١ .

(٢) نفسه ٤ / ٣٦٤ .

وقد أورد العكبرى - فى شرحه للديوان - هذا البيت :

ولم أرفى عيــوب الناس شيـئا   كنقص القــادرين على التــمــام

ضمن أبيــات ، ذكر أنهــا « نــوادر لــم تــأت فــى شــعــر غيــره ، وهــى مما تخــرق العقــول « وقال » : فــهذا الــذى لم يأت شاعــر بمثله ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويؤتى الحكمة من يشاء »[1] .

* * *

---

(١) البيتان ١ / ١٦١ .

الفارس الأسير والحلم الضائع

حكَم « كافور » على « المتنبى » حكماً قاسيًا ، إذ حدد إقامته. . وصار الشاعر وآماله العريضة وأحلامه الوردية فى قفص ، مفتاحه بيد كافور. . . تبدد الحلم، وضاع الأمل، وخاب السـعى. . وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب . .

كان المتنبى ذاهبًا إلى مصر يحدوه الأمل وتدفعه أحلامه لأن يكون واليًا أو أميرًا يحقق فى ولايته مالـم يحققه الملـوك ، ثم ينطلق بعد ذلك مكوّناً دولة عظمى أو امبراطورية .

تلك كـانت غايتـه التى ظل يرتحل من أجلهـا، ويتعب ويجـد ويذهب أسنمة إبله طمعا فى تحقيقها. . وأنه لمطلب عظيم ، عبر عنه بقولـه[1]:

أهم بشئ والـليـالـى كـأنهـا تطاردنـى عن كـونـه وأطاردُ

ومن ثم كان ما فعله كافور ليس مـجرد لطمة قوية ، بل هدما للآمال، وتحطيماً للأحلام. .

إنه لم يكتف بحـرمانه من الولاية، بل « حـدّد إقامـته » ، ومنعـه من الخروج من مصر .

كانت تلك الإقامة « الإجبارية » تعجيزاً للمتنبى عبر عنه بقوله :

أقمت بأرض مـصر فلا ورائى تخب بـى المطى ولا أمـــامى

وها هو يعيش وحيـدا، غريبا، محدود الحـركة، فلا هو ذاهب ولا هو

(١) سبق .

آت، لا رائح ولا غاد، لا متقدم ولا متـأخر، لا يسعى إلى كبير ولا إلى صغير. . لقد حرم من كل الآمال والأعمال ، كـبيرها وصغيرها، عظيمها وحقيرها. . فالهدف الأكبر الذى كان نصب عينيه - لأنه الأسمى والأغلى - حُـرِم منه. وأما مـا وراءه فأشـياء تافـهـة ، ومع ذلك حرم منهـا هى الأخرى. . لقد منع من كل شىء ، ومنع عنه كل شىء.

إن هول المأساة، وهول الخطب، وعظم المصيبـة تتضح حين يُقارَنُ حاله فى بلاط سيف الدولة بحاله عند كافور. . .

لقد كان نجـما متألقـا أيما تألق، « فأصبح بمثابة الـقائد الذى كان ملء الدنيـا، ثم إذابه فى لحظة واحـدة يُبْعـد عن قـيادتـه، ويُسلب الأوسمـة والنياشين، ثـم يودَع فى السجون. . ألا يوحى ذلك بمقدار مـا يعتمل فى نفسه حزن دفين ؟!»[1].

لقد ذبحه كافور ذبحا، وقلل من غروره، وكبح من جماحه، وكف من غربه. وكانت الـدنيا قبل مجيـئه إلى مصر كـالغابة أمامه، يقـول ما يشاء ويفـعل ما يشـاء، ويُدِلُّ على من يشـاء ، فـإذا ما جـد الجد، وتعـرض للمؤاخذة شد عصا الترحال هارباً أو مسافرا. .

« أما فى مصر فقد التصق بالأرض رغم أنفه، لأن حاكمها كان رجلاً، داهية، فيه ذكاء ومكر وسياسة ، هيّأ للشاعر أسباب القول، ولكنه - أيضا جنّد له عـيون الملاحظة وأسـباب المؤاخذة . . مما جـعله ينأى بنفـسه عن جموح الخيال، ويركن إلى أصالة الواقع. . »[2].

كانت الفترة التـى قضاها المتنبى فى مصر أخطر فتـرات حياته، وأشدها

---

(١) فى ميزان النقد الأدبى ص٢٠٢ .

(٢) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ص٢٩١ . (بتصرف).

أثرا فى نفسـه، « لقد حورب فـيها حـربا نفسيـة رهيبة، إذ أهمله كـافور إهمالا بعد فترة وجيزة من وصـوله مصر، بعد أن كان هناك - عند سيف الدولة - ملء السمع والبصر. . ومن ثم أحدث هذا الإهمال جرحا عميقا فى نفسه. . »[1] ثم ما لبث أن أعقب الإهمال تحديدُ إقـامة، ورصدُ عيون وجواسيس حوله .

مـن هنا كـان عظـم الخطـب وهـول المأساة ، تحـملهـا ألفاظـه : (أقمت) فـالإقامة كما أسلـفنا - شىء يتعبه، وهو هنا مكره علـيها. . وقـوله : (بأرض مصـر) فـيه اسـتنكار أن يحـدث له ذلك على أرض مصـر، تلك البلد التى وفد إليهـا الشاعر تتـراقص الأحلام أمام عـينيه ، يتخيل نـفسه جالسا على كـرسى ولاية من ولاياتها، فإذا بالآمـال تتبدد، والأحلام تتبخر، والسعى يخيب. .

وكان لجوؤه إلى مصر بمثابة تسلل إلى ملجأ أخير، فكانت الصدمة قوية إذ إنه يقدر مصر تقديرا خاصا، ومن هنا ذهب الدكتور « طه حسين » إلى أن شعره فى مصر أقل سقطا من شـعره فى حلب. . وكان شعره فى مصر « أشبه بشـعر جبار يئنّ ويحنّ ويتذكـر ويرمز، وبخاصة حين وجـد نفسه محاصـراً ومراقباً ويدس عليـه فى الحين بعد الحين للتعـرف على اتجاهاته نحو كافور »[2].

شَعَر المتنبى أن الدنيا كله ضده، وأن الباب الأخير قد أوصد فى وجهه، والطريق انقطعت به، وهو - وحـده - يقف فى الميدان ، فخـارت قواه، وانهارت نفسه إذ يرى كل ما رسمه وخطط له يضيع، وصار يعانى صنوفا

---

(١) الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى ص١٢٧ (بتصرف قليل) .

(٢) دراسات فى النص الشعرى - ص١٨٧ ، ١٨٨ (بتصرف).

من الضغط النفسى والتقييد والعنت..

لذا آثر الفلاة والهجير، وتوحّد مع الناقـة، ولاذ بربه وسيفه، وما دفعه إلى ذلك إلا اغترابه.

لقد كـان المتنبى « يعدو عـدْواً سريعـا وراء طموحـه، وكان أشق شىء على نفسه أن يرى الزمن واقفا بليدا... وإذا كان الزمن فيما قبل من رواة قصائده - على حـد تعبيره* - فـإنه فى مصـر قـد أصبح عـذاباً له، فى البـداية كان الـزمن مجـرد انتـظـار لـوعـد، ثـم أضـحـى عـذابـاً حـيـن أحسـن أنـه « مراقب » من قبل كـافور. وحين تحقق أن ما أمله لن يجئ أصبح الزمن عذابا وقهرا... »[1].

وقد زاد من مأساته ما رآه من سلبيـة فى شعب مصر، إذ يسكتون على ما يكرهون، صـاروا كلهم - فى نظـر المتنبـى - إمّـعـة، لا رأى لهـم ولا عقل، وإنما مجرد تبع.

ها هم على دين ملكهم، يحبـون من أحب، ويكرهون من كره، ومن هنا كان تحـاشيهم له، ونفـورهم منـه، لا لشـىء إلا تبعـيـة لكافـور. وما أشبه حاله بحال طرَفة بن العبد القائل[2]:

ومازال تشـرابى الخمـر ولذتى	وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامـتنى العشيـرة كلها	وأفـردت إفراد البـعيـر المعبـد

(*) وما الدهر إلا من رواة قصائدى   إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

(١) نفسه ١٩٣، ١٩٤ (بتصرف).

(٢) ديوانه ص٤٩ والبيتان من المعلقة. وراجع كتابنا: تمرد طرفة.

وهكذا صار المتنبى غريبا فى مصر، وسبب ذلك سقم فؤاده ، وهو لا يجهل السبب وراء ما حدث له، إنه كثرة حساده، وبعد أمله، وطموحه ، وعلو همته .

لذلك كله اغتاظ من مصر وأهلها ، واعتبرهم خصوما له، إذ وقفوا ضده مع خصمه، أو على الأقل سكتوا عن ظلمه وطغيانه، بل رضوا أن يحكمهم عبد ليس منهم .

هذه الكراهية الشديدة، والسخط البالغ سجله فى شعره فى قصائد أخرى، يقول وهو مفارق مصر فى قصيدته (عيد)[1]:

إنى نزلت بكذابين . . ضيفهم — عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدى وجودهم — من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم — إلا وفى يده - من نتنها - عود

أكلما اغتال عبد السوء سيده — أوخانه فله فى مصر تمهيد

صار الخصى إمام الآبقين بها — فالحر مستعبد والعبد معبود

نامت نواطير مصر عن ثعالبها — فقد بشمن وما تفنى العناقيد

إلى قوله :

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن — يسئ بى فيه عبد وهو محمود

ولا توهمت أن الناس قد فقدوا — وأن مثل أبى البيضاء موجود

وأن ذا الأسود المثقوب مشفره — تطيعه ذى العضاريط الرعاديد

(١) الديوان ٢ / ١٤٢ - ١٤٥ والنواطير : جمع ناطور أى السيد الشريف . ثعالبها : عبيدها وأراذلها. العناقيد : الأموال . بَشِمْنَ : أى أصابتهم تخمة من كثرة أخذ الأموال ونهبها. والعضاريط : جمع عضروط وهو الذى يخدم الناس بطعام بطنه .

يقول الدكتور « طه حسين » عن بيته :

نامـــــت نـــــواطيـــر مصـــــــر . . . . البيـت

« ولست أعرف أصدق فى مصـر ولا أبرع فى تصويرها من هذا البيت الأخيـر. وما أرى إلا أن المتنبى قد أُلهِم البـلاغة والحكمة حقًّـا حين وفق لهذا البيت الذى يختصر لونا من حياة مصر منذ أبعد عهودها بالتاريخ إلى هذا العهـد الذى نحيا فيـه. ولو أن التاريخ أراد أن يحصى الثـعالب التى عدت على مصر وأمـوالها فأخذت منها ما أطاقت ولم تـطق حتى أدركها البشم وما فوق البشم، ونواطيرها نائمـة ، وقادتها غافلون ، وأموالها مع ذلك لا تفنى ولا تنفد ، ودول الثعـالب يتلو بعضها بعضا، ويقفـو بعضها إثر بعض - أقول : لو أراد التاريخ إحصاء هذه الثعالب لما لأستطاع.

« ولست أدرى أيأتى يوم يكذب فيه هذا البيت من شعر المتنبى فلا تنام نواطير مصر، ولا تـبشم الثعالب فيها، ولا يعـدو الماكرون القادرون على أهلها الآمنين الغافلين ؟ . . »[1].

وقال أيضا[2]:

ومـاذا بمصـر مـن المضـحكات ولكـنه ضـــحك كـــالبـكا
بهــا نبطـى من أهل الســواد يدرس أنســـاب أهل الفـــلا

وقال[3]:

من أية الطرق يـأتى نحـوك الكرم أين المحـــاجم يا كـافـــور والجلم

---

(١) مع المتنبى ٣٣٤ .

(٢) الديوان ١ / ١٦٧ .

(٣) الديوان ٤٠ / ٢٨٠ - ٢٨١ .

جاز الألى ملكت كفاك قدرهم	فعرفوا بك أن الكلب فوقهم
لا شىء أقبح من فحل له ذكر	تقوده أمة ليست لها رحم
سادات كل أناس من نفوسهم	وسادة المسلمين الأعبد القزم
أغاية الدين أن تحضوا شواربكم	يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

إلى غير ذلك مما قاله فى مصر وكافور.

يقول الدكتور « مصطفى الشكعة »[1]:

« لم يقف الأمر بالمتنبى عند سب كافور وهجائه ، وإنما اكتسح فى طريقه مصر التى يحكمها كافور، والمصريين الذين رضوا به حاكما وقبلوه أميرا. . .وفى اندفاعه الشديد وكراهيته المتفجرة يتجه الشاعر إلى المسلمين بعامة، وإلى أهل مصر بخاصة فيخصهم برشاش كثيف مما أمطره على رأس كافور من هجاء وسباب. . كانت حملة المتنبى على كافور والأرض التى يعيش عليها شديدة عنيدة، وتعدى القول فيها حدود الشعر الجيد إلى مجال الشتم الكريه والسب البذئ الذى لا يجمل أن يصدر عن علم كبير من أعلام الأمة العربية كالمتنبى ».

إن المتنبى نظر إلى مصر وشعبها بعين السخط، ولونال ما تمنى هناك لنظر بعين الرضا(*) غير أن نظرته تنم عن معرفته بتاريخ مصر منذ الفراعنة. وأرانى متفقا مع الدكتور « طه حسين » فيما ذهب إليه، والتاريخ خير شاهد.

---

(١) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين (٣٤٧ - ٣٤٩) .

* وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدى المساويا

يقول الشيخ محمود شاكر - فى حديثه عن قصيدة (عيد) :

إن أبا الطيب « ذم مصر وأهلها ،ووصفهم بالكذب والمماطلة، وما كان من ولاية كافور الأسود الخصى عليها، ومـا كان يجرى من المكر فيها وفى سياستها. . إلى أن يقول :

« ونحن نقـدم العذر لأبى الـطيب فيـما ذمّ بـه مصـر، وما ذكـر من أخلاقهـا، فقد كان الرجل منكوبا فى نفسـه وآماله، وقلبه وهواه ، وزاده القوم كيدا، وأثبت عليه الأسودُ كافورٌ عداوة باغية. .

« وليس بمنعنا من شـهادة الحق - ولو على أنفسنا - مـا يأتى به بعض الناس من الغضب الباغى (للقومية) . وقـد ذكـر أبـو الطيـب عيوبـا لا تزال متأصلة فى مصر، ولا خيـر فى الغضب من ذكرها، بل الخير كل الخير فى معرفتها والتنبه لها والعمل على إصلاحها .

« والحقيقة التى لا تُجحد أن أبا الطيب قد نفذ ببصيرته إلى ما كان يسلُ مصر ويقتلها من الخلق الفـاسد. . وليس أبو الطيب وحده هو الذى عرف ذلك يومئـذ وأدركه، بل قد عرف ذلـك كثير من أهل عـصره، وإذا أنت قرأت التاريخ الذى بين أيدينا، وقـفت على ذلك، وعلمت أن الرجل كان بصيرا نافذاً إلى ضمائر الناس يجلوها ويكشف عنها. . »[(١)].

* * *

(١) المتنبى ص٣٧٠ - ٣٧١ ثم ذكر الشيخ أبـياتاً للقاضى التنوخى الكبير قـالها حين قدم مصـر وخرج كـارها. . . فوصف أهل مـصر بأنهم ضـباع، وهم شر الخلـق فى شر البقاع، إلى غير ذلك من نقص وجهل . . . . إلخ .

الزائرة الحَيِيَّة

إذا كان الناس قد امتنعوا عن زيارة المتنبى إرضـاءً لحاكمهم ، فإن زائرةً قد استغلت خلاء المكان من الناس ، وتسللت ليلاً إمعانا فى التخفى حتى لا يراها أحد وجاءته فى الظلام ، كـالحسناء العاشقة الحييـة التى تستحيى من العذال وتتخفى من الرقباء .

وإذا كان الناس قد خشوا من كافور فإن الحمى - هى الأخرى - تتسلل حتى لا يشى بها أحد .

إنها زائرة غير مـرغوب فيها، وزيارتها ليست مـحببة لديه، هـا هـى لا تأتى إلا فى الظلام. ذلك الظلام المزعج المخيف الذى تناوله الشـعراء من خلال وصفهم الليل، **فقال امرؤ القيس :**

وليل كمـوج البحـر أرخى سدوله　　　علىَّ بأنـواع الهـمـوم ليـبـتلى

الأبيات .

وقال النابغة :

كلينـى لهم يا أمـيـمـة ناصب　　　وليل أقـاسـيـه بطـئ الكواكب

الأبيات .

وما الظلام فى أبيـات المتنبى هذه إلا ظلمات نفس المتنبى العـاجزة التى لا تستطيع فكاكا من قيود كافور .

ويحاول الشاعر أن يـلهى تلك الزائرة بأى شىء عسـاهـا تقنـع بـه، إلا أنهـا أبت إلا العظام . وحقّ لهـا أن تفعل مـا تشـاء، وتبيت أينمـا تريد، إذ صار المتنبى مقعدا لا حول له ولا قوة .

وإنما دعـاه إلى هذا المسلك التخـيـيلى فى وصف الحمى تلك الوحـدة والغرابة النفـسية كثـيرا ما تتـيح لمن يصاب بها أن يكثـر من الحديث إلى نفسه، وأن يكثر من شطحات الخيال، ومن هنا نفسر هذا التأنى ف وصفه للحمى، وفى الرمـز إليها بامرأة عاشـقة مدلهة أو متـهالكة، بدلا من أن يعبر عنها تعبيرا مباشرا »[1].

« وهو هنا لا يريد أن يصـور الحـمى فى واقع الأمـر بقدر مـا يريد أن يصور نفسه الوحيدة المنعـزلة فى هذه الدنيا التى ليس فيهـا أحد يـزوره أو يسأل عنه، إلا هذه الحـمى التى تزوره ولاتبخل عليـه بمعاودة الزيارة ، هذا هو الذى تبقى له من الزوار والعواد. . . »[2].

وتأمل قولـه « الكُرَب العظام » تشعـر بمدى ثقل المصائب على نفـسه، ومدى اليأس والاحـباط والفـشل. وكيف لا ؟ وقـد أناخت الدنيا عليـه بكلكلهـا كمـا تمطى الليل بصليه وأردف أعـجاز وناء بكلكله عـلى امرئ القيس من قبل .

ثم انظر كيف كانت الحـمى صادقة الوعد لا تخلفـه بحيث صار المتنبى عارفا بوقتها، ومن ثم أخذ يراقبه، فى حين أن كافورا أخلف وعده ؟

و « بنات الدهر » بشتى صنوفها وألوانها قد أحاطـت بـه ، وأقامـت « عنده » ، وتزاحمت عليه، فلا مكان خال بحيث يمكن أن تصـل إليـه « بنت » أخرى، ومن ثم فـهو يعجب لـ « بـنت الدهر » هذه (الحمى) كيف استطاعت أن تجد سبيلا تتسلل من خلاله للوصول إليه . إنه لم يعد

(١) الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى ص١٠٦ .

(٢) نفسه ص١٠٧ .

يتحمل مصائب أخرى. وهذا ناطق بأن الشاعر قد وصل إلى قمة اليأس والإحباط .

وهذا « الدهر » الذى كان من رواة قصائده - كما أسلفنا -، وكان المتنبى يسابقه فى الوصول إلى مراده، ها هو الدهر نفسه يوكِّل إحدى بناته لكى تفعل ما تفعل به، إنها بنت لا تعرف الرحمة ، أوَ ليست من فيح جهنم كما يقول الرسول - ﷺ - ؟ .

وإذا كان المتنبى قد جعلها بنت الدهر فإن « ابن المعذّل » جعلها بنت المنية فى قوله[1]:

وبنت المنية تنتابنى   هدوا وتطرقنى سحره

إلخ .

ولا مجال للمفاضلة هنا، لأن جراحات المتنبى النفسية أخطر وأعظم من آلامه الجسدية التى يتحدث عنها « ابن المعذل » وهذه هى عظمة شعر المتنبى ، فهو أكبر من أن يكون خاصا به أو معالجا لحادثة معينة ، إنه كما يقول القاضى الفاضل « يتحدث عن خواطر الناس ، وهذا سرا انكباب الناس عليه »[2].

إن المتنبى بسبب ما كان يعانيه ويقاسيه من الأسر والتقييد أصيب بصدمة نفسية قللت من مناعة جسمه ومقاومته للحمى . .

ويصيح صيحة استغاثة ، ويتمنى أمنية مكروب : هل يبرأ مما هو فيه ليستأنف مسيره ويواصل رحلته ؟! .

(١) راجع الوساطة للقاضى الجرجانى ص١٢١ وقد امتنع عن تفضيل أحد الشاعرين على الآخر .

(٢) تجديد ذكرى أبى الطيب / عبد الوهاب عزام ص٣٢٠ .

إن الذى يعانيه حقيقة هو ذلك « التعجيز » وليس « العجز » عن السفر والترحال والتنقل. والعنان والزمام اللذان يتمنى أن تطلق يده حرّة للتصرف فيهما ما هما إلا الراحلتان اللتان يتمنى أن يرحل على إحداهما فاراً ومتخلصا من هذه القيود. إنهما وسيلته إلى الغاية الكبرى الآن « الحرية » .

هل سيتاح لتلك النفس الطموح والهمة العالية مواصلة رحلة البحث عن المجد والعلا ؟؟.

ولا يشفى غليل صدره سوى الخروج من هذا المأزق، وهو تطلع إلى شىء حرم منه .

يقول صاحب اليتيمة عن هذين البيتين[1]:

فربتما شفيت........ ....

« وهو أحسن ما قيل فى وصف محنة نهكت صاحبها، واشتدت به، ثم عاد إلى حال السلامة وقد هذبته تلك الحال وزادته صفاء وسهولة » .

أقول : وفى البيت الأول ما يبين عن مدى حلاوة الحلم وغلاءه فى نفس الشاعر، إذ صار أمله هوى .

ثم إنه يرى الإبل التى هى أداة الهرب من هذا السجن وكانت قبلا - فى بداية القصيدة - راحلته يتوحد معها، عيونها عينه إن حار، وبغامها بغامه ،" يراها هنا راقصة مزينة بالحلى.

---

(١) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر / الثعالبى - تحقيق د / مفيد قميحة ج١ / ٢٢٦ ط ثانية دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٨٣ م .

وكـأن أهدافه كـانت تشـرد منه يمنة ويسـرة فهـى فى حاجـة إلى إبل تتراقص كذلك لتمكنه من صيدها.

إنها أمنيات محروم، ونفثات مكروب، وأحلام فارس أسير .

ويستجمع قـواه ليكون قادرا على استئناف المسيـرة مؤكداً أنه قادر على الخطوة الأولى، وهى الخـلاص من ذلك الأسـر، وإن رصـد كـافـور من العيون والجواسيس ما رصد. وحنيئذ لا مجال لوداع أو سلام .

* * *

طبٌّ قاصر وطبيب جاهل

ويرى المتنبى طبيبــه عاجزاً ، وطبه قاصرا عن تشخـيص دائه الحقيقى . إن من جهل الطبـيب أنه يشخص داء المتنبى كما يشـخص لسائر المرضى، وهذا أقـوى دليل على جـهله . ألا يعلم أن المتنبى نسـيج وحـده ؟ وهو معذور لأن طبه الذى تعلمه ليس فيه أن المريض « جواد » فارس كل عشقه وهوايتـه إثارة الغبار، وإذا به يـحال بينه وبين تلك اللذة ، ثم لم ينـشغل بشيء بعد .

وهنا « تتسع حواشى الـصورة ، وتمتد ذيولها، ، حتى يتـبادل « الجواد الشاعر » مع « الجـواد الفارس » ، وتنزوى - ولا نقول تخـتفى - صورة النموذج القائل حين تزاحمهـا صورة النموذج المقاتل، دون أن تنفى الثانية الأولى أو تستبعدها تماما، فمعاناة الفنان فى ساحة الكلمات صراع لا يقل فى ضراوتـه عن صراع المحارب فـى حومة الوغى، وكـلاهما فى مـظهره الصورى لا يزال جوادا .

« وقد يتملكنا العجب لأننا إزاء جواد كـسير مضرور. . . وبناء الصورة ذاته قد سوغ ذلك الانكسار، حين جعله مرهونا بصيغ المبنى للمجهول فى البيت الآخير :

فهذا الجواد لم يقعد بذاته، وإنما قـيدته قوة لا قبل له بها ، فلا هو فى فـسحـة من رباطه حتى يرعى، ولا هو فـى السفـر حتى يعـتلف مما فى مخـلاته من زاد ، ولا هو فى اللجام حـتى يتهـيأ لما تتـهيأ لـه الخيل من شئون.

« ويمكنك - دون عَنَت - أن تتـدرج من هذا البناء إلى دلالتـه الثانيـة لتتبين أنك إزاء فارس، أو جواد ،- فلا فـرق - محـاصـر ، لا هـو قانـع

بما بين يديه حتى يقيم ، ولا هو فى حل من أمره حتى يرحل »[1].

وإذا كانت الحمى قد نالت من جسده فإن نفسا طموحة وهمة عالية تدفعانه دفعا إلى التحدى ، تحدى تلك الملمات، فهو الطموح القوى الذى لم يمرض صبره ولا عزمه ولا تصميمه .

كما أنه لا يفرح فرحا طاغيا بسلامته وذلك أنه إن لم يمت بالحمى مات بغيرها « تعددت الأسباب والموت واحد » وهذا استسلام للقضاء ، ويقين بالموت .

ثم يأتى البيتان الأخيران فى القصيدة ، ويفسرهما النقاد بأن المتنبى كان يعتقد مذهب التناسخ، أو على الأقل يعرفه، فالإشارة هنا إلى ثالث الحالين يقصد بها التناسخ الذى لا يقع فيه - كما يقول من يؤمن به - موت ولا نوم[2].

وقال ابن العديم : هذا ينبئ عن اعتقاد الحشيشية[3].

وقال ابن جنى معلقا على البيتين :

أرجو ألا يكون أراد بذلك أن نومة القبر لا انتباه لها[4].

وأرى أن الأمر أيسر من هذا التكلف فى التأويل . فهو يريد أن يقول: إن الموت أمر آخر غير النوم واليقظة ، وأن حياة القبر (البرزخية) تختلف كذلك عن حياتنا هذه. وإن كان الموت شبيهها بالنوم فى عدم الحركة وغير ذلك فهو الموتة الصغرى كما يقول الرسول - ﷺ -

(١) شعر المتنبى - قراءة أخرى ص٣٥ ، ٣٦ د / محمد فتوح .

(٢) انظر . الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٣٠٩ والديوان / البرقوقى ١ / ٩٦ .

(٣) راجع : ترجمة المتنبى لابن العديم - المتنبى / شاكر ص٦٢٦ .

(٤) اليتيمة (١ / ٢١٥) .

ويقول ربنـا جل شأنه : ﴿ **وهو الذى يتوفـاكم بالليل ويعلم ما جـرحتم بالنهار ...**﴾[١] ، ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى..**﴾[٢].

ويبدو أن الحكم على عقائد الناس صار أمـراً سهلا، دون صدور ما يدل على فسق أو كفر أو اعتقاد مذهب باطل من المحكوم عليه .

إن ألفاظ البيتين ليس فيهما ما يشير إلى تناسخ أو غيره ، والمتنبى أشار إلى اختلاف بين كل من اليقظة والنوم من جهة ، والموت من جهة أخرى، إلا أنه لم يوضح ما هية هذا الاختلاف.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة :

لما كان مغرما بالإثارة ختم قصيدته بهـذين البيتين اللذين اختلف فيهما الشراح، فذهب بعضهم إلى تكفيره بتهمة عدم إيمانه بالبعث والنشور[٣].

إننى أرى أن الشاعر يؤمن بالحـياة البرزخية تلك الـتى تختلف تماما عن حياتنا هذه. فهذه دار تكليف وامتحان لا دار جزاء، وأما البرزخ فأول دار الجزاء ، فيه عذاب ونعيم، وليس فيه نوم .

* * *

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٤٢ .

(٣) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ص٣٣٠ .

بعض آراء النقاد فى القصيدة

١ - قال القاضى الجرجانى فى وساطته[1]:

وهذه القصيدة كلها مختارة ، لا يُعلم لأحد فى معناها مثلها، والأبيات التى وصف فيها الحمى أفراد، قد اختَرع أكثر معانيها، وسهل فى ألفاظها، فجاءت مطبوعة مصنوعة. وهذا القسم من الشعر هو المطمع المؤيس ».

٢ - وقال المقريزى[2]:

« وهى أحسن ما وصفت به الحمى ».

٣ - وقال الدكتور طه حسين[3]:

« هذه الميمية التى قالها حين أصابته الحمى فى مصر من أرق الشعر العربى كله، وأعذبه وأرقاه، وأشده استثارة للحزن وتحريقا للقلوب الحساسة الشاعرة .

ويقول :

« وما أشك فى أن لهذه القصيدة قيمتها الفنية ، ولكنى لا أشك فى أنها لم تكلف الشاعر من الجهد والعناء ما تعود أن يتكلفه فى غيرها من قصائده، وإنما فاضت بها نفسه، وانطلق بها لسانه، وجرى بها قلمه فى غير تكلف ولا عسر » .

---

(١) الوساطة ص١٢١ .

(٢) المتنبى / شاكر ٦٩٤ .

(٣) مع المتنبى ٣١٩ .

٤ - وقال أنيس المقدسى[1]:

« وقصـائده الكافورية من أسلس قـصائده وأحـلاها معنى، وأجـملها إيقاعـا. ومن بدائعه فى هذا الطور ميمـيته المشهـورة فى وصف حاله فى مصر، ووصف حمى أصابته، نظمها وهو فى الخامسة والأربعين، فجاءت غاية الغايات من حسن الانسجام ، ودقة التعبير، وحسن الاختراع ».

* * *

---

(١) أمراء الشعر فى العصر العباسى ٣٦٠ .

أهم المصادر والمراجع

* أبو الطيب المتنبى - ر . بلاشير - ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلانى - دمشق سنة ١٩٧٥ .

* أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين د / مصطفى الشكعة - عالم الكتب - بيروت .

* أمراء الشعر فى العصر العباسى - أنيس المقدسى - دار العلم للملايين - بيروت .

* تاريخ الشعر فى العصر العباسى - د / يوسف خليف - دار الثقافة - القاهرة - سنة ١٩٨١ م .

* تجديد ذكرى أبى الطيب - عبد الوهاب عزام .

* تمرد طرفة - أسبابه وأصداؤه فى شعره د / ذكريا عبد المجيد .

* تيارات معاصرة فى الشعر الجاهلى د / سعيد دعبيس - دار الثقافة - القاهرة.

* الحنين إلى الوطن فى الأدب العربى - محمد إبراهيم حوّر - دار النهضة المصرية سنة ١٩٧٣ م .

* الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى د / طه أبو كريشة سنة ١٩٧٨ م .

* دراسات فى النص الشعرى - العصر العباسى - د / عبده بدوى - دار الرفاعى - الرياض ط ثالثة سنة ١٩٨٤ م .

* ديوان الشعر العربى / أدونيس - دار الفكر - بيروت - ط ثانية .

* ديوان طرفة - تحقيق د / على الجندى

* شرح ديوان المتنبى / عبد الرحمن البـرقوقى - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان سنة ١٩٨٦ م .

* الشعر العبـاسى - تطوره وقيمه الفنية - د / محـمد أبو أنوار - ط ثانية - دار المعارف .

* الشعر العباسى - التيار الشعبى د / سعد اسماعيل شلبى - مكتبة غريب .

* شعر المتنبى - قراءة أخرى د / محمد فتوح - دار المعارف - ط ثانية - سنة ١٩٨٨ م .

* العمدة لابن رشيق - تحقيق محيى الدين عبد الحميد ط دار الجبل .

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د / شوقى ضيف - دار المعارف .

* فى الشـعر العـباسى - نحـو منهج جـديد - د / يوسف خليف - مكتبـة غريب .

* فى ميزان النقد الأدبي د / طه أبو كريشة - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .

* قراءة ثانية لشعرنا القديم - صلاح عبد الصبور - دار العودة - بيروت .

* القصـيدة العباسـية - قضـايا واتجاهات د / عبـد الله التطاوى - ط ثانية - مكتبة غريب .

* اللغة بين البلاغة والأسلوبية د / مصطفى ناصف - النادى الأدبى - جدة .

* المتنبى - شاعر السيف والقلم د / فوزى عطوى - دار الفكر العربى .

* المتنبى - شاعر مكـارم الأخلاق - أحمد محـمد الشامى - النادى الأدبى - جدة .

* المتنبى - محمود شاكر ط المدنى .

* مطالعات فى الكتب والحياة - العقاد - المكتبة التجارية سنة ١٩٢٤ م .

* مع المتنبى - د / طه حسين - دار المعارف .

مقدمة للشعر العربى - أدونيس - دار العودة - بيروت .

* موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى. د / محمد زكى العشماوى - دار النهضة العربية - بيروت .

* موازنة بين الحكمة فى شعر المتنبى والحكمة فى شعر أبى العلاء - د / زهدى الخواجا - دار الأصالة سنة ١٩٨٢ م .

* الوساطة بين المتنبى وخصومه - القاضى الجرجانى - تحقيق أبى الفضل والبجاوى - دار القلم - بيروت .

* يتيمة الدهر - الثعالبى . تحقيق د / مفيد قميحة - ط ثانية - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٨٣ م .

* * *

فهرس الموضوعات

■ رقم الإيداع بدار الكتب
والوثائق القومية

١٩٩٦/١٣٩٩٥

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ح المدرسة خلف جامع الأزهر
تليفون: ٥١٠٦٧٢٤